

أهمية اللغة العربية في تطور و بناء المجتمع وتماسكه

عمار علي ماضي

جامعة الزيتونة تونس الجزائر

[ammarsedrata1967@gmail.com](mailto:ammarsedrata1967@gmail.com)

ملخص البحث للغة العربية تاريخ حافل مجيد ، حافظت على كيانها منذ عصور مديدة، لم يصبها الوهن، ولم تدركها الشيخوخة، وظلّت تستجيب لحاجات الناطقين بها ، وتستوعب كل ما يستجد في حياتهم ، فهي لم تلد كاملة، ولم تكن من صنع الفرد الواحد؛ نشأت وتطورت عبر أطوار عديدة لم يدركها عصر التدوين، فهي مرتبطة بالأمة تتأثر بنظامها وتقاليدها، واتجاهاتها ومسارها. فهي كائن حيّ تام خاضع لناموس الارتقاء وتجدد ألفاظها وتراكيبها على الدوام؛ فهي ظاهرة سيكولوجية اجتماعية وثقافية مكتسبة؛ تتألف من رموز صوتية لغوية عن طريقها تتفاهم أفراد الأمة الواحدة فتتطور أساليبهم التعبيرية لتطور حضارتهم وتتولد مفردات جديدة منها العربية والأصيلة، والدخيلة وضعت في قوالب قديمة لتماشي الصيغ الكلامية المتداولة بين جماعة المتكلمين

**Abstract:** Arabic language has a glorious history. It has maintained its existence for centuries, and it has not weakened or aged. It has responded to the needs of its speakers. It has also absorbed all that is new in their lives, because it was not born as complete, and it was not made by a single individual. It originated and evolved through many phases, and it did not see an era of blogging. It is interrelated with the nation, and it is affected by its system, traditions, trends, and track. It is a fully living organism that is constantly subject to the law of promotion and the renewal of its words and structures. It is an acquired psychological, social, and cultural phenomenon. It consists of phonetic and linguistic symbols through which members of the same nation can understand each other. Thus, their style of expression develop because of the evolution of their civilization, and new words emerge including Arabic, standard Arabic, and exotic words. All these are put in old templates to cope with the verbal formulas that are already exchanged among a group of speakers.

.

## المقدمة

لا يخفى على أحد أن من سمة اللغات الأبرز التساير والتطور، وتطور اللغة هو أن تنحو اللغة إلى التغيير أو التبدل، دون إطلاق أحكام معيارية عن التطور وطبيعة أو نوعه، وليس بالضرورة أن يكون التطور نحو الأحسن أو الأفضل، وإنما هو ضرب من التغيير على ما ذكرنا، قد يُلاقي القبول والاستحسان، أو يُلاقي الاستهجان. وتطور اللغة بوجه عام شبيه بتطور المجتمعات البشرية والحضارات أو الثقافات، وهذا الشبه قائم على أن المجتمعات البشرية تتطور وتتغير من حال إلى حال، أو من طور إلى طور، واللغة كذلك.

والدليل على هذا التطور أن اللغة لها طور تُولد فيه وتنشأ، وطور تزدهر فيه، آخر تتلاشى فيه أو تضمحل، والدليل على هذا النشوء والاضمحلال، ما نُعائنه في الكثير من اللغات أو في أغلب اللغات التي نشأت عن أصل ثابت، أو شبه ثابت، وانتهت إلى فرع أو فروع مختلفة، من ذلك مثالا الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية التي تعود كلها إلى أصل لاتيني يرجع إلى القرنين الثاني

والثالث الميلاديين، ومن ذلك العربية أيضا التي تعود إلى العربية القديمة أو إلى اللغة السامية؛ أي: إلى القرن الرابع قبل الميلاد وأكثر، ومن المعلوم أن اللغات الأصل لـ ما تنشأ عنها فروع أخرى تضعف وتتلاشى، وتضمحل أو تموت، وموت اللغات مما تشهده أو شهدته لغات كثيرة، والتاريخ شاهدٌ عليها، وذلك مثل الآشورية والسومرية والفرعونية والسانسكريتية وغيرها، وموت اللغة يكون باضمحلال المجموعة اللسانية التي تستعمل تلك اللغة، أو بالأحرى بآخر من يتكلم بها.

إن تطور اللغة ليس من السهل رصده وتتبعه لأنه عموما تغيرٌ بطيء، وهو ليس تغيرًا فرديًا؛ وإنما هو تغير اجتماعي، وهو شبيه بالتغيرات أو التحولات الاجتماعية والاقتصادية

التي تجري في صلب مجتمع ما، والتي لا تظهر نتائجها إلا بعد مرور وقت ليس باليسير. وعندما نتحدث عن تطور اللغة، يعني التطور الحاصل في مظاهرها أو في أحد مستوياتها اللسانية؛ أي: في المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية الدلالية، ولعل المستويين المعجمي والصوتي هما اللذان يتضحان أكثر من غيرهما ذلك أن الألفاظ في الاستعمال هي الشائعة، بحكم الحاجة إلى التعبير عن الحاجات ومتطلبات الحياة التي لا تنفك تتجدد وتتغير باستمرار، وبتغيير الحاجات تتغير الكلمات أو الوحدات المعجمية، ومن هذه الوحدات المعجمية الجديدة المحدث والدخيل والمولد. والتغيير الصوتي بدوره يتعلق بسهولة الاستعمال والخفة والحسن في نطق الأصوات والتقاطها بالأذن، فضلاً عن الاقتصاد في الجهد، أو بذل المجهود الأدنى. ولعل التغيير البطيء يتعلق بجلاء في التغيير التركيبي؛ لأن التركيب أقرب إلى الثبات، باعتباره الركيزة الأساسية في نظام اللغة، وبفساده تفسد اللغة برمتها.

### الإشكالية :

ما يحتم علينا في هذا البحث جملة من الأسئلة المكثفة حول اللغة العربية في مسيرتها التاريخية وحياتها الراهنة ومستقبلها، في ظل ظروف الهيمنة الإمبريالية العالمية والإقصاء والبقاء للأقوى.

أسئلة تدور حول واقع الأمة ولغتها من خلال طرح الإشكالية الهامة " ما دور اللغة في تماسك بناء المجتمع وتطوره ".

دائماً نتحدث عن قلب المعادلة فنقول: "ما دور المجتمع في بناء اللغة وتطورها" لكن إشكالية بحثنا هذا تعكس هذه القضية، وتسند مهمتها إلى اللغة و دوراً الخطير هو بناء و تماسك المجتمع وتطوره.

تعتمد هذه الإشكالية على : ما أهمية ودور اللغة، لا نتحدث عن أي لغة، إنها اللغة العربية لغة القرآن في بناء وتماسك المجتمع . كما نلاحظ لفظة "بناء"، أيضاً أي نوع من البناء نعني ؟

وكان لازماً علينا حصر هذه الإشكالية لتجيب عن دور اللغة العربية في بناء وتماسك المجتمع العربي وتطوره في هذا العصر.

وهي مهمة صعبة يحس الباحث بخطورتها في هذا الظرف الحساس الذي تمر به الأمة العربية، وخاصة هذا الواقع المريب المتردي الذي يعيشه المجتمع العربي.

لكنّ "لغة القرآن" ولغناها وقدسيتها تساعد الباحث على حل الكثير من مشكلات هذه المهمة و الحفر داخل اللغة بتلازمها بالداخل الاجتماعي . ، بحيث تصبح هي والإنسان العربي توأمين، بل واحداً، يصنع كلّ منهما الآخر، ويمضيان في رحلة الحياة متوحدين.

هذا ما نستشفه ويكشف عنه البحث في ثناياه، ليجيب عن قابلية اللغة وإمكاناتها على تجديد البناء، لأنّها لم تعد لغة فقط بحروف وألفاظ وعبارات، بل أصبحت إنساناً يحس ويشعر ويتحرك كيف ما يشاؤون.

لقد عمل المبحث في حلّ هذه الإشكالية، فبيّن ما الدور التاريخي للغة العربية في بناء المجتمع، حيث وجد المجتمع العربي واللغة نسيج واحد في بناهما الذهنية والنفسيّة والماديّة ، مستعيناً على ذلك بعلم العلماء ومنظريهم .

ولذلك قسمت البحث إلى بحثين هاميين يتوليان الإجابة عن ما الدور التاريخي والدور الحاضر للغة في بناء المجتمع. وعرض لكثير من المسائل والقضايا، والتوقف على نقاط ذات صلة ضرورية بالإشكالية، وتقديم جملة من الاقتراحات تساهم في بناء ورشة المجتمع العربي المعاصر، من خلال اللغة العربية وما تحويه من إمكانات في دفع الأبناء إلى المحافظة على البناء والمكتسبات عبر القرون.. ذلك أن اللغة العربية لها عناصر الديمومة التي لا تزال

العنصر الأكثر أهمية الجامع للعرب باستطاعتها أن تقوم بالمهمة إذا ما تمّ الالتفات إلى حقيقتها عبر التعرّف إليها مجدية ، والنظر إلى صورة المجتمع وحيرة اللغة فيه، والإضاءات المجتمعية التي أضافت إلى موجود اللغة الشيء الكثير، وتمسّكت بمبدأ المواطنة أولاً، وبالمواطنة اللغوية ثانياً، وصولاً في الأخير إلى جملة من الضرورات التي ينبغي ملاءمتها مع الحاضر، لاسيّما حضور الوعي، وضرورة تجدد الخطاب المعرفي والخطر الداهم المتمثل بالرهان على تفتيت المفتت في الأمة العربية . بالإضافة إلى الأسس التي تساعد اللغة لبناء المجتمع العربي المتطور وسط هذه الصراعات التي تقول البقاء للأصلح من أجل البقاء.

المبحث الأول : ما الدور التاريخي الذي تلعبه اللغة العربية ؟

المطلب الأول : تعريف اللغة لغة واصطلاحاً :

أ- تعريف اللغة لغة :

إن مصطلح اللغة العربية كأى مصطلح آخر، له تعريف من حيث اللغة والاصطلاح كما هو معلوم، وإليك خلاصة ما ورد في تعريف مصطلح اللغة سواء من حيث اللغة أو من حيث الاصطلاح. لغة: من لغا في القول لغوا: أي أخطأ، وقال باطلا. ويقال: لغا فلان لغوا: لي أخطأ، وقال باطلا. ويقال: ألغى القانون. ويقال: لغى من العدد كذا أسقطه والإلغاء في النحو: إبطال عمل العامل لفظاً ومحلاً في أفعال القلوب مثل ظن وأخواتها التي تتعدى إلى مفعولين . واللغا: ما لا يعتد به. يقال: تكلم باللغا ولغات ويقال سمعت لغاتهم: اختلاف كلامهم. واللغو: ما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يصل منه على فائدة ولا نفع والكلام يبدر من اللسان ولا يراد معناه.

وجاء في لسان العرب لابن منظور في باب لغاء، أن اللغة على وزن فعلة من لغوت أي تكلمت، وأصلها: لغوة ككرة، وثبئة، كلها لاماتها وواوات، وقيل أصلها لغى أو لغو والهاء عوض لام الفعل، وجمعها لغى مثل برة أو برى والجمع لغات أو لغون<sup>(١)</sup> وقال الكفوي: اللغة أصلها لغى، أو لغو جمعها لغى ولغات<sup>(٢)</sup> وذكرها الفيروز آبادي في مادة لغو بالواو، وجمعها على لغات ولغون<sup>(٣)</sup>

تعريف اللغة اصطلاحاً:

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تحديد تعريف محدد للغة، ويرجع سبب ذلك إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم. وإليك أهم تلك التعريفات كما ذكرها العلماء القدامى:

ابن جني: أبرز تلك التعريفات وأوضحها هو ما ذكره ابن جني قائلاً: أما حدها (اللغة) فإنها أصوات يعربها كل قوم عن أغراضهم<sup>(٤)</sup> ويؤكد هذا التعريف عدة من الحقائق المتصلة باللغة حسب رأينا وهي:

- اللغة لها وظيفة اجتماعية، لكونها أداة للاتصال والتواصل بين أفراد المجتمع، ووسيلة لتعبيرهم عن أغراضهم وحاجاتهم.

- اختلاف اللغة باختلاف المجتمع.

قد عرف ابن تيمية اللغة بأنها: أداة تواصل وتعبير عما يتصوره الإنسان ويشعر به، وهي وعاء للمضامين المنقولة، سواء أكان مصدرها الوحي، أم الحس،

(١)- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، باب لغاء، ط١، ٣ مادة لغاء،

(٢)- لكفوي، أبو البقاء بن موسى الحسني، الكليات، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٩٩١ ص: ٦٠.

(٣)- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط ٣، ١١٦٤ لهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١، ص ٣

(٤)- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط ٣ ١٩٩٤ لهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١، ص ٣.

أم العقل، وهي أداة لتمحيص المعرفة الصحيحة، وضبط قوانينـــــــ  
التخاطب السليم،<sup>(٥)</sup> ويستفاد من تعريف ابن تيمية للغة السمات التالية:  
- أن اللغة وظيفة اتصالية وتعبيرية.  
- أن لها علاقة بالعقل والتصور والمشاعر.  
- أن اللغة أهمية في نقل المعرفة وتمحيصها.  
ابن سنان: ويعرف ابن سنان الخفاجي اللغة بقوله: هي ما يتواضع القوم<sup>(٦)</sup> عليه  
من الكلام.  
ابن خلدون: وفي إطار تعريف اللغة تحدث ابن خلدون في مقدمته فعرفها  
بأنها: اعلم أن اللغة في المعارف عليه، هي عبارة المتكلم  
عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشيء عن القصد بإفادة الكلام،  
فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل  
أمة  
بحسب اصطلاحاتها<sup>(٧)</sup> تضمن هذا التعريف عدة حقائق وهي  
كالآتي  
- أن اللغة وسيلة  
اتصالية إنسانية اجتماعية، يمتلكها متكلم اللغة، ويعبر بواسطتها عن  
آرائه واحتياجاته، ومتطلباته.  
- أن اللغة تختلف من مجتمع إلى آخر، طبقا لما اصطلح عليه أفراد ذلك المجتمع.  
- أن اللغة نشاط إنساني عقلي إرادي يتحقق في حدود عادة كلامية لسانية.  
- أن اللغة تصبح ملكة لسانية بتكرار استعمالها.

(٥) - بد السلام، أحمد شيخ، اللغويات العامة مدخل اسلامي وموضوعات مختارة، ط ٢، كوالالمبور، الجامعة الإسلامية العالمية. بماليزيا، دار  
التجديد للطباعة والنشر والترجمة، ٢٠٠٦ ص ٦٠.

(٦) - الخفاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، ج ١؛ القاهرة، ١٩٥٣، ص ٣

(٧) - ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ط ٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ١، ص ٨٠.

عبد القاهر الجرجاني: ويعرف الجرجاني اللغة بأنها: عبارة عن نظام من العلاقات والروابط المعنوية التي تستفاد من المفردات والألفاظ اللغوية بعد أن يسند بعضها إلى بعض، ويعلق بعضها ببعض، في تركيب لغوي قائم على أساس الإسناد<sup>(٨)</sup> والذي اتضح مما سبق أن علماء اللغة رغم محاولتهم وجهودهم الجبارة في إيجاد تعريف محدد جامع ومانع للغة، إلا أنهم اختلفوا أحياناً واتفقوا أحياناً أخرى، فقد اختلفوا في تحديد أجزاء التعريف المعرف للغة كما تبين من التعريفات السابقة، ولكنهم اتفقوا على أن اللغة هي الأصوات التي نعبر بها عما نريد ونحتاج في حياتنا، وهي وسيلة التواصل بين بني البشر، فبواسطتها نستطيع التفاعل والتفاهم بغض النظر عن اختلافها من قوم لقوم، ومن مكان لمكان، إلا أنها في النهاية تؤدي نفس الوظيفة وهي التواصل. ومما يستخلص من التعريفات العديدة للغة التي تم تناولها، والتطرق إليها أن اللغة هي ما يأتي:

\* أن اللغة أداة الاتصال.

\* أن اللغة أداة التخاطب والتفاهم \* أن اللغة أداة للتواصل بين الأفراد والجماعات والأمم.

\* أن اللغة أداة للتعبير عن المشاعر والعواطف والأفكار. هذا ما ذكره العلماء القدامى رحمهم الله تعالى في تعريفهم للغة.

\* إن مصطلح العربية كغيره من المصطلحات عرفه العلماء وتناولوه بالشرح والتفصيل من حيث اللغة، والاصطلاح، حيث لا يمكننا أن ننكر أهمية العربية في حياتنا فهي اللغة العالمية، لغة الإسلام والمسلمين، التي تعد من أشرف اللغات وأفضلها، لارتباطها بالقرآن الكريم، وقد هياها الله تعالى لها من العلماء من يتعلمها ويعلمها، ويكون خير من يحمل رسالتها، خدمة لكتابه العزيز،

(٨) - الجرجاني، دلائل الإعجاز، الرباط، دار الأمان، ١٩٩٨ ص ٢.

واليكم خالصة ما ورد من تعريفات: مادة العربية مشتقة من عرب يعرب عربا: أي فصح بعد لكنه . و عرب: عربوا , وعروبة , و عرابة , وعروبية : أي فصح . ويقال : عرب لسانه . وأعرب فلان : كان فصيحاً في العربية وإن لم يكن من العرب . والكلام : بينه . وأتى به وفق قواعد النحو . وطبق عليه قواعد النحو . وبمراده: أفصح به ولم يوارب . عن حاجته : أبان . والاسم الأعجمي: نطق به على منهاج العرب . وعن صاحبه: تكلم عنه واحتج . ويقال: عرب عنه لسانه : أبان وأفصح . والكلام: أوضحه . بعد الهجرة، استعرب : : صار دخيلاً في العرب وجعل نفسه منهم.<sup>(٩)</sup>

### ج- مفهوم اللغة العربية :

للغة العربية هي إحدى اللغات القديمة التي عرفت باسم مجموعة اللغات السامية، وذلك نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام، الذي استقر هو وذريته في غرب آسيا وجنوبها حيث شبه الجزيرة العربية. ومن هذه اللغات السامية: الكنعانية، النبطية، البابلية، الحبشية. واستطاعت اللغة العربية أن تبقى، في حين لم يبق من تلك اللغات إلا بعض الآثار المنحوتة على الصخور. هنا وهناك<sup>(١٠)</sup> حيث تحوي العربية من الأصوات ما ليس في غيرها من اللغات، وفيها ظاهرة الإعراب ونظامه الكامل، وفيها صيغ كثيرة لجموع التكسير، وغير ذلك من

ظواهر لغوية، يؤكد لنا الدارسون أنها كانت سائدة في السامية الأولى التي انحدرت منها كل اللغات السامية المعروفة لنا الآن<sup>(١١)</sup> واللغة العربية أكبر

(٩) - إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، باب العين، ج ٢، ص ١٩٥-١٩٦ تصريف سير .

(١٠) - د. غنيم، كارم السيد، اللغة العربية والصحة العلمية الحديثة، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر الجديدة، القاهرة، ص ١٥ .

(١١) - أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية. ط ٣ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٣

لغات المجموعة السامية من حيث عدد المتحدثين، وإحدى أكثر اللغات انتشاراً في العالم، يتحدثها أكثر من أربعمئة واثنين وعشرين مليون نسمة، ويتوزع متحدثوها في المنطقة المعروفة باسم الوطن العربي، بالإضافة إلى العديد من المناطق الأخرى المجاورة كالأهواز وتركيا وتشاد ومالي ونيجريا وماليزيا وأندونيسيا وغيرها من الدول الإسلامية<sup>(١٢)</sup>. إذن فالعربية

هي اللغة السامية الوحيدة التي قدر لها أن تحافظ على وجودها وأن تصبح عالمية، وما كان ليتحقق لها ذلك لولا نزول القرآن الكريم بها؛ إذ لا يمكن فهم كتاب هلا تعالى الفهم الصحيح والدقيق وتذوق إعجازه اللغوي والبياني إلا بقراءته باللغة العربية. كما أن التراث الغني من العلوم الإسلامية وأمّهات الكتب مكتوبة باللغة العربية. ومن هنا كان تعلم العربية هدفاً لكل المسلمين واللغة العربية تعد من أطول اللغات عمراً، وتعد أقرب اللغات إلى اللغة الأم. فهي اللغة الوحيدة التي حافظت على بنيتها وكتب لها البقاء دون تحريف قبل الإسلام، ثم زادها هلالاً كرامة وعزة واختارها لغة لكتابه العزيز، وحفظت بحفظه. ثم عني بها أهلها فليست هنالك لغة نالت من الرعاية والاهتمام والبحث مثلما نالت العربية، وليست هنالك لغة تملك التراث الذي تملكه اللغة العربية<sup>(١٣)</sup>. اللغة العربية لغة إنسانية حية، لها نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبي، كما ألفاظها دلالاتها الخاصة بها. وقد رأى العلماء أن كل خروج عن هذا النظام اللغوي المتكامل يعد لحناء، سواء أكان هذا الخروج بخلط الكلام بلغة أخرى، أم باستعمال اللفظة في غير موضعها، أم في مخالفة

---

(١٢)- عمار، أحمد، جمل، محمد، العربية الفصحى بين برنامج اللغة العربية ووسائل الإتصال

الجماهيرى، ندوة العربية الفصحى ووسائل الإتصال الجماهيرى، ص ١١٠

(١٣)- د. صالح محمد التركي، التعليم الإلكتروني، جامعة الملك فيصل، ص ٣ عكاشة، محمود، علم اللغة: مدخل نظري في

اللغة العربية، القاهرة، دار النشر للجامعات، 2006، ط1، ص-75: ٧٦.

أي عنصر أساسي من عناصر كيانها اللغوي التي يميزها عن غيرها من اللغات الإنسانية<sup>(١٤)</sup> وتعتبر اللغة العربية واحدة من اللغات العريقة في العالم الآن، يرجع تاريخها إلى ما لا يقل عن ألف وخمسة مئة سنة، بالشكل الذي نقلته إلينا المعاجم التي يرجع تاريخ تدوينها إلى نهايات القرن الثاني الهجري وبدايات القرن الثالث الهجري، ولاسيما بعد ظهور صناعة الورق في البلدان العربية. <sup>(١٥)</sup> هنا نستنتج بأن مفهوم اللغة منهج ونظام للتفكير، والتعبير، والاتصال، وقد اهتم الفكر اللغوي الحديث، بالكشف عن ماهية البنية اللغوية العميقة، وتفسير عمل الآليات الدقيقة لمنظومة اللغة، تميزت عندها اللغة العربية بأنها واحدة من اللغات الإنسانية المعاصرة، التي يتحدث بها الملايين من العرب، والمسلمين، وهي إحدى لغات منظمة الأمم المتحدة.

### المطلب الثاني : اللغة والأمة العربية

#### ١- اللغة العربية نسيج المجتمع العربي

لا تزال اللغة العنصر الرئيس في إعطاء الصفة الاجتماعية للمتحدثين بها، والوقفة التي يقتضي وقوفها اليوم حول دور اللغة العربية في حياة العرب يتخطى الحاضر في حركة غير متعاكسة نظرياً على الأقل. ووجهة هذه الحركة هي باتجاه الماضي أولاً والمستقبل ثانياً مروراً بالحاضر ثالثاً.

وفي الأحوال كلها ثمة تعويل على التواصل، وثمة حراك وشبه سكون يقتفیان أثر الحياة.. وهذا لا يعني الحيوية أو الموت.. إنما حالة وانتقال، يبقى فيهما التواصل، ويبقى قول الجاحظ

(١٤)- دار النفائس، بيروت، ١٩٩٨، ص ١١

(١٥)- بتصرف من موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة، يوم السبت، ٦ يوليو، الساعة ١٢٦:٩ صباحاً.

صحيحاً، على الرغم من مرور الزمن: "إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبدلت نفسه وفسد حسّه<sup>(١٦)</sup>".

والقول هو اللغة، سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة أم إشارة أم إيماءً أم رموزاً... وهي عند العرب حميمة وتضامنية واجتماعية.. لذلك كانت لها هذه الأهمية، لأنها فعل حياة، وغيابها يؤثر تأثيراً كبيراً في واقع أبنائها. يورد د. هدسون Hudson في كتابه "علم اللغة الاجتماعي"، الفقرة التالية عن بعض مواصفات اللغة العربية<sup>(١٧)</sup> "تمثل الاختلافات بين الثقافات المختلفة بتحديد المسافة التي تتلاءم مع درجة معينة من التضامن، فالمسافة التي يحددها العرب - مثلاً - غالباً ما تكون أقصر من المسافة التي يحددها الأميركيون. وقد أُجريت لتدعيم هذا الإدعاء أبحاث للمقارنة بين الطلاب العرب والطلاب الأميركيين في جامعة أمريكية. في هذه الدراسة طلب من الطلاب أن يتحدثوا سوياً في أزواج في غرفة يمكن ملاحظتهم فيها دون علمهم، وقد تم تسجيل حركاتهم ودرجة اقترابهم من بعضهم بعضاً عند الجلوس واتجاه أجسامهم ومقدار نظرهم إلى بعضهم بعضاً ومقدار ارتفاع أصواتهم ومقدار تلامسهم... خاطب العرب العرب الأميركيين والأمريكيون الأميركيين، وعند مقارنة النتائج وُجد أنّ العرب يواجهون بعضهم بطريقة أكثر مباشرة من الأميركيين... وأنهم يقتربون من بعضهم في جلوسهم أكثر من الأميركيين، وأنهم أكثر استعداداً للملامسة بعضهم بعضاً والنظر مباشرة في عيون بعضهم بعضاً، وتخطبوا بصوت أعلى من أمثالهم من الأميركيين. وقد تضمنت هذه التجربة عدداً من المتغيرات غير المسافة، تشترك كلها بطريقة أو بأخرى في تحديد علاقات القوة والتضامن بين الأفراد. وقد تؤدي مثل هذه الاختلافات الثقافية بين الأميركيين وبين العرب إلى سوء تفاهم شديد بين الطرفين".

---

(١٦)- البيان والتبين أبو عثمان بن عمرو مجرا الجاحظ الجزء الأول تحقيق عبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بيروت ١٩٤٩ ص ٢٧٢.

(١٧)- علم اللغة الاجتماعي، تأليف دهدسون، ترجمة د محمود عياد عالم الكتب القاهرة، ١٩٩٠ ص ٢٠١-٢١١

## ٢- خصائص اللغة العربية الذهنية والنفسية

تبدو هذا الخاصية الأكثر أهمية في خصائص اللغة العربية، هي وحدتها وتلاحم أبنائها وتضامهم واقترابهم من بعضهم البعض حتى التلاصق والتوحد..

وهذا دليل يفصح عن أنّ اللغة العربية ليست أمراً عارضاً، أو شيئاً يمكن تبديله كلما خطر للبعض خواطر أو نزعات أو ميول أو تأثيرات بعامل من العوامل.. العربية هي صنو الحياة.. زمن نشوئها مرتبط بأسباب عرف بعضها والقسم الآخر لم يعرف حتى الآن، أو لم يتمّ الإقرار به من بعض الباحثين.. وفي الأحوال كلّها ثمة من يرى في العربية تماثلاً للناس أنفسهم، لا يكاد يميّز بينهما، حتى أصبحت "بنية ذهنية، تكوّنت من نوازع نفسية طبيعية، تراصفت تاريخياً، فعدت بمثابة بوتقة تصهر ما يوضع فيها وتشكّله وفاق طابعها، حين ملاءمته للصهر، فيكون له منحى خاص في الحوار والتعبير والسلوك والنظرة إلى الواقع وما بعده من آفاق وتطلعات تتجاوز المحسوسات. إنّها النفس العربية بكل ما فيها من انعطافات ونتوءات.. (١٨).

وهو تعريف يتخطى التعريفات القائلة عن اللغات: إنّها بنى ذهنية، ليؤكد على الإضافة المهمة: "إنّها النفس العربية" وهي "المتميّزة بقدوم وتنوع خبراتها ومصادر ثرائها وعمق تاريخيتها التي تصل حتى التفرد بين اللغات التاريخية التي تتعامل بها سلالات الأسر اللغوية الأخرى (١٩)

وعبارة "النفس العربية" ليست مجرد عبارة تلقى جزافاً، إنّما هي حصيلة غير معقدة لتكوين "الذاتي" العربي.. هذا "الذاتي" الذي تضافرت على ارتقائه التدرّجي إلى الوجود عوامل لا تحصى، وهو في الحقيقة لا يعني الابتعاد من الموضوعي، إنّما هو خليط من الاثنين، من المادي المحسوس المصادِر إلى عالم الذات، ذات الأمة المخترنة تجارب الروح وتجارب الجسد، تجارب المعنى وتجارب المبنى، ونفسية العربي بمكوناتها كافة، لذلك كان البناء على قول ابن

(١٨)- فصول مجهولة من تاريخ العرب ولغتهم د يوسف الحورني، دار النهضة العدنانيون، بيروت ٢٠١٠، ص ٣

(١٩)- المرجع نفسه.

خلدون: "الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى، وليس يوجد ذلك إلا في اللغة العربية<sup>(٢٠)</sup>".

كان هذا البناء إذاً يؤكد أنّ "اللغة العربية هي ذاتية أكثر مما هي موضوعية، أي هي في أساسها تجاوب مع انطباع أو صوت، وحين يستعملها المتكلم بها لتبليغ ما يريد، يترك للمستمع أو القارئ فسحة لإكمال الصورة والإرادة الكامنة خلفها<sup>(٢١)</sup>".

إنّ ما يشغلنا في هذه الفقرة هو إبراز إمكانية اللغة وسيطرتها على زمام القول، وانبثاق دورها الدائم في الفعل. ذلك الفعل الذي يتخطى، أحياناً، أطر الزمان والمكان، من دون أن يهملها أو يتجاوزهما..

إنّ القدرة الفاعلة للغة العربية تتأتى من عناء تكوّنها وتسمّمها هذه المكانة الرفيعة، ليس في نفوس أبنائها الذين صنعوها عبر تاريخهم الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي وحسب، بل في نفوس غيرهم من الشعوب، سواء أنطقوا بها أم لم ينطقوا، لأنّ البحث العلميّ الدقيق يظهر فرادة هذه اللغة وتأثيرها في مجتمعات كثيرة، كشف عن بعضها، وبقي البعض الآخر ينتظر الجهود لكشفه..

ولقد زاد من تركّز العربية في الذهن والنفوس، ومن إقبال الناس عليها ارتباطها بالقيمة الاجتماعية للإنسان وهي المتأتية من العلاقة الوثيقة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فمن تعلّمها حسنت مكانته<sup>(٢٢)</sup>، ومن "أحب الله أحبّ رسوله المصطفى (ص)، ومن أحبّ النبيّ العربيّ أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبّ العربية عني بها وثابر عليها، وصرف همّته إليها<sup>(٢٣)</sup>".

(٢٠)- مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ف٣٦، ص ٥٤١

(٢١)- الرجوع نفسه، ص ٣٦

(٢٢)- افقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي تحقيق د فائز محمد، دار الكتاب العربي، ط ٢، بيروت ١٩٨٢، ص ٨.

فكيف يتأتى أن تكون اللغة العربية بنىّة ذهنيّة و"النفس العربيّة" و"ذاتية"؟ كيف تأتي لها أن تحمل في رحمها التعبير الصافي عن الموجود، لتصبح بحدّ ذاتها المنشود القادر على صنع النفوس، وتكوين الذوات، وإحداث التغيير في هذا الموجود والارتقاء للتركز في الذهن؟  
المطلب الثالث - اللغة العربية عند روادها و منظريها:

أ- : اللغة العربية عند الجاحظ

يتناول د. مصطفى ناصف ما أورده الجاحظ في دراسته القيّمة "محاورات في النثر العربي<sup>(٢٣)</sup>" عن بعض مزايا اللغة العربيّة، وكيف أنّها أصبحت لغة العلم والحياة الحية، وكيف اكتسبت هذه القوّة مع مرور الزمن والعبارة له..

يقول الجاحظ عن اللغة العربيّة: "قال بعض النقاد وجهابذة الألفاظ: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصوّرة في أذهانهم، والمتخلخلة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفيّة، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره. وإنّما يجي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجلبها للعقل وتجعل الخفيّ منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً. وهي التي تلخص الملتبس، وتحلّ المنعقد، وتجعل المهمل مقيّداً، والمقيّد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوحشيّ مألوفاً، والغفل موسوماً، والموسوم معلوماً.."<sup>(٢٤)</sup>

ومن هذه المنطلقات التي شكّلت اللغة العربيّة وكوّنتها في أفق غير محدود من التجارب، اختلط فيها الذاتي بالموضوعي، بل توحد ليقوما في الصدور، ويبقيا في الأذهان والنفوس والمتصلة بالخواطر والأفكار و"المستورة الخفيّة" والمحجوبة المكنونة و"الموجودة في معنى

(٢٣)-المرجع نفسه ص. ٢٦

(٢٤)-علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار عكاظ للنشر والتوزيع جدة، د ط، 1983م-16-17-18-19-20-21

معدومة.. أي أنّ هذه اللغة كامنّة في الشخصية وتحتاج إلى تحريك وإحياء وذكر وإخبار بها واستعمال لها..

ومن بعض الاستخلاصات التي توصل إليها د. ناصف، في دراسته "البيان والتبيين" للجاحظ: "أنّه لا يمكن أن تُدرس مواقفنا من اللغة بمعزل عن مواقفنا من المجتمع" وأنّ "المتكلم قد يهزمه المجتمع وتظهر هذه الهزيمة في شكل وعي<sup>(٢٥)</sup>..

هذا العي هو الصعوبة المتمثلة في غير القدرة على التعبير.. وهي حالة تنتاب المجتمع كما تنتاب الفرد، في وضع معيّن وزمن معيّن، حيث يعجز الناس عن استعمال اللغة ودفعها لتقول ما ينبغي قوله.. إن فعالية الفصاحة والبيان، في نظر الجاحظ، كانت مطلباً اجتماعياً، وأنّ الصمت، لذلك يشكّل في البادية وطأة تغلب اللغة أو تعجز دونها اللغة.. وحينما يحدث الشاعر عن صمت العيّ فإنّما يشير إلى قهر اجتماعي خاص<sup>(٢٦)</sup> ذلك "أنّ العربيّ كان في زحام الشّرّ يستعين باللغة على بعض بواعثه، أو يمرّ بطور من المجاهدة العنيفة ضدّ اللغة"<sup>(٢٧)</sup> ولذلك "شغلت البيئة العربية بظاهرة الانتفاع باللغة، وعلى الأخص في شكل الخطابة"، وهي اللفظة المشتقة من "حَظَب" في مجال العلاقات الاجتماعية. "لقد طلب من اللغة أكثر مما يطلب في بيئات أخرى<sup>(٢٨)</sup>".. لذلك اعتقد العربي، كما يرى الجاحظ، أنّ لغته قادرة، فقد استعملها في خصوماته السياسية، واستعمل بيانها لخدمة الأفكار النيرة، كما عبّر بها في بعض الجوانب عن الأفكار الظلامية غير البناءة، يقول الجاحظ: "وذكر الله، عزّ وجلّ لنبيّه (ع) قريشاً في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام وصحة العقول، وذكر العرب وما فيهم من الدهاء

---

(٢٥)- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، الناشر مكتبة "الخانجي"، القاهرة، ط 31417هـ-1725م ص 199

(٢٦)- المرجع نفسه ص ١٩-٢٠

(٢٧)- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط 8، 2002 ص 123

(٢٨)- حمد عبد الله عطوات، اللغة الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1424هـ-2003م ص ٣٤

والنكراء، ومن بلاغة الألسن واللدد عند الخصوم<sup>(٢٩)</sup> وفي الأحوال كلّها تبقى العودة إلى اللغة أو الانطلاق منها أمراً من الأهمية بمكان، اللغة تبقى والناس يتبدّلون.. صحيح أنّها تتبدّل معهم، لكنّها تحافظ على جوهرها.. وقد يتراجع استعمالها أو قد تهمل، لكنّ ما يبقّيها قدرتها على الاستمرارية، لأنّها، كما يرى الجاحظ، تحمل أمرين أساسيين: أحدهما البراعة العقلية وثانيهما: القوّة الروحية المهيبة<sup>(٣٠)</sup> وأنّها "لها عبقريتها الخاصة"، لذلك "كان الإحساس القويّ باللغة تعمقاً لدفعة الحياة" وأنّ "علوّ اللغة من باب علوّ الهمة والكبرياء، والانضباط الحقيقي انضباط لغوي لا عقلي. إنّ العاطفة اللغوية الفتية هي سبيلنا لمعالجة السرف والترّف وأنّ "مسألة اختيار الكلمات علاج لشفاء النفس<sup>(٣١)</sup>"، وأنّ الفرد يزهو كثيراً إذا تكلم أو أبان، وكان الكلام دائماً سبباً من أسباب رفعة الأشخاص والجماعات.

لقد كان اعتقاد الجاحظ الدائم أنّه: "من خلال اللغة يستيقظ المجتمع ومن خلال وجه آخر منها يستيقظ الفرد بخصوصيته"<sup>(٣٢)</sup> و"اللسان يمكن أن يغلب مقدار العلم، والعلم يمكن أن يغلب العقل. الغلبة إذاً للسان، أي اللغة. وربما استطاع الكاتب الذكي المتملك اللغة أن يصنع متلقيه، قد يجعله عبياً أو غافلاً<sup>(٣٣)</sup> و"الذي يملك اللغة خليق بأن يسود في المجتمع... و"العجز عن الكلمة عجز اجتماعي في المقام الأول<sup>(٣٤)</sup>، وأنّ "اللغة حقيقة متعالية على المجتمع أيضاً" وأنّ العلة موجودة في الناس وليس في اللغة، لأنّ "بعضهم يميل إلى التقهقر والبعض الآخر إلى التقدم<sup>(٣٥)</sup> .

---

(٢٩)- البيان والتبيين الجاحظ ١/٨ عن المرجع السابق، ص ٢٣

(٣٠)- المرجع ٢٥-٢٦

(٣١)- المرجع نفسه ص ٢٦-٢٧

(٣٢)- المرجع نفسه ص ٣٢-٣٣.

(٣٣)- المرجع نفسه ص ٣٥-٣٦.

(٣٤)- المرجع نفسه ص ٢٠-٢٢.

(٣٥)- المرجع نفسه ص ٤١-٤٢.

اللغة العربية لدى الجاحظ تعلّم الناس، تعيش فيهم. هي جزء من نفوسهم، توجّهها وتدّلّها إلى الجيّد والرديء والنافع والمضّر.. لذلك رأى أن "ضرورة ضبط اللغة هو صنو لضبط النفس.. وكأثما يتعلم المرء مخاطر التعبير حينما يتعلم اللغة"<sup>(٣٦)</sup>.

وقد نتساءل: من أين تأتت للجاحظ هذه الوفرة المعرفية بمزايا اللغة العربية.. وقد يجيب هو نفسه عن هذا التساؤل عندما حسب أنّ المعاني مطروحة، وعلى الفطن أن يكتشفها، وأن يعلم أنّ اللغة هي من صنع الناس، راكموها، وبثّوا فيها الحياة.. جعلوا منها كياناً قائماً بذاته: الإقبال عليه منجاة والابتعاد منه مهلكة.. لذلك كان يحسب أن "فكرة الهزيمة الثقافية فكرة بلاغية" وأن "سلطان الكلمات أشدّ ارتباطاً في الثقافة القديمة بالصدع والاستعلاء وطلب المجد والفتون" وأنّ الأعرابي يحب الكلمة وهي خير عنده من الدنيا، وأنّ التذكر والحنين إلى لغة الماضي أمر داعم للثقافة، وأنّ "الافتتان بالكلمة موقف".

ب- - عند فرنان دي سوسير

إذا كان اعتقاد الجاحظ يقوم على أنّه: "من خلال اللغة يستيقظ المجتمع" كما أسلفنا، فإنّ فردينان دي سوسير Ferdinand du Soussere يذهب إلى القول في مجال الحديث عن دور اللغة: "تكون اللغة المشتركة مسؤولة إلى حدّ ما عن الوحدة العرقية"<sup>(٣٧)</sup>. وفي مكان آخر يقول: "الاعتقاد السائد هو أنّ اللغة تعكس سايكولوجية الأمة، ولكن الاعتراض المهم على هذا الرأي هو أن الأسباب السايكولوجية لا تقف بالضرورة وراء العمليات اللغوية"<sup>(٣٨)</sup>.

ج- اللغة واللاوعي عند غوستاف كارل يونغ Carle Gustaf Jung

بينما أبرز كثير من الدراسات السايكولوجية التي اتخذت من الأدب واللغة والنقد سبيلاً إلى توضيح مفاهيمها، الروابط الوثيقة بين الأدب واللغة من جهة، وبين الموروث من جهة ثانية. يتضح ذلك من خلال الاعتقاد أنّ اللغة الحاضرة لمجموعة من الناس هي من

(٣٦)- المرجع نفسه ص ٣٧-٣٨ .

(٣٧)- علم اللغة العام دي سوسير ٢٣ ترجمة ديؤيل يوسف عزيز دار آفاق عربية بغداد ١٩٨٥، ص ٢٤٥.

(٣٨)- المرجع نفسه، ص ٢٤٨-٢٤٩.

نتاج اللاوعي الجمعي الذي هو نوع من خزان للمعلومات تتسرّب إليه من خلال الممارسة والنشاط الجمعيين. وهذا اللاوعي يصبح الممكن الرئيس للصور والمعلومات، باستطاعته أن يخرجها عند الحاجة. وهو لا يخضع لقاعدة علمية صارمة، بل يتجلى في التجارب والسلوكات التي تخرج من المخيلة النفسية. وخروجها لا يخضع لحكم معيّن من الكاتب أو القارئ أو أي فرد اجتماعي، فهو لا يتحكّم بها لأنّها رواسب غريزية تتحرّك بوساطة آلية غير واضحة تماماً<sup>(٣٩)</sup>

وقد عدّ غوستاف كارل يونغ Carle Gustaf Jung، العالم النفساني، هو المؤسس لهذا التفكير، فهو يرى أن العمق الإنساني واحد، سواء أكان في الجماعة البشرية الواحدة أم على الصعيد الإنساني، وليس من شيء جمعي صنعه البشر يموت.. فاللغات والعادات والتقاليد والأديان تبقى حيّة في اللاشعور الجمعي، على أساس أنّها ثوابت تعيش على شكل تصوّرات في الأعماق الإنسانية. هو نوع من التراكم يظهر بأشكال متعدّدة لأصل واحد، يرتبه الشعور الجمعي عند الفرد وعند الجماعة. وهي عملية تبدأ من القمة (أي الأنا)، لتصل إلى القاع السحيق: الوعي الجمعي الأعمق، وهي مرتبة نزولاً: الأنا والوعي واللاوعي الشخصي واللاوعي الجمعي واللاوعي الجمعي الأعمق<sup>(٤٠)</sup>.

وهكذا أحسّ الإنسان أنّه في دائرة مغلقة، هي دائرة المجتمع الذي لا يستطيع الخروج منها، وقد تكرّست فيما بعد بالقوانين والأنظمة والمعارف واللغات التي تعارف عليها المجتمع.

وتقوم نظرية يونغ على القول بوجود اللاوعي الجمعي والأنماط الأولية، وهذه الأنماط هي السلوكات المشتركة بين أفراد الجماعة في لغتها وتفكيرها ونظرتها إلى الأمور، والنمط هو النظرة نفسها إلى قضية من القضايا.. وهذا الأمر يتراكم عبر الزمن ويعيش داخل اللاوعي، يرقد ويستكين لكنه لا يموت، بل يتحرّز للخروج بالمشيرات والدوافع، وهكذا فإنّ

(٣٩)-النظريو الادبية والنقدية والاسطورية حنا عبود-٢٥ منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق ١٩٩٩، ص ١٧.

(٤٠)-المرجع السابق، ص ١٨-١٩-٤٠..

اللغة والحلم والفكر هي من هذا النتاج النمطيّ الأوّليّ، ظهر في بدايات التجارب الإنسانيّة وظلّ يتراكم إلى الآن.. وخروجه لا يعني تكرار صورته، بل جوهره والأساس فيه. وهذا يحمل إلى القول بتجدّد النظرة ضمن هذا النمط والإضافة إليه<sup>(٤١)</sup>.

تحمل هذه المداخلات على التفكير بأنّ اللغة العربية هي واحدة من التكوّنات الاجتماعيّة التي اختزنت الأنماط الأوّليّة من التفكير اللغويّ العربيّ. وظلّ تراكم هذا التفكير عموماً طويلاً يتكوّن ويرسب في اللاوعيّ الجمعيّ العربيّ مخزوناً تُستطاع إعادته عند الحاجة.

وما يجري في حياة الأمتّة العربيّة من اضطراب وقلق وفوضى في شؤون كثيرة ينعكس على اللغة، ويُوهم أنّها منسيّة أو مهملة أو غير قادرة على تقديم الأفضل لجماعتها ووحدتها عموماً.. هذا الوهم لا يعود إليها بحدّ ذاتها بل إلى العامل الآخر في الثنائيّة الإيجابية: اللغة – الأمتّة.

وفي التقدير أنّ ما قال به يونغ، من أنّ شيئاً من موروثات الجماعة لا يموت، بل يظلّ متراكماً، ينتظر الوثوب، يعود إلى الواجهة محلّته التي تفرض ألوانها على أبنائها نمطاً راجحاً، ليس في حياة العرب وحدهم، بل في حياة شعوب كثيرة تعيش فيها اللغة العربية كأنماط أوّليّة نقلتها الجماعات العربيّة المتدفقة باتجاه العالم.. وذلك لم يتمّ، كما يقول، الباحث الأركولوجي يوسف الحوراني، "في جلسات أكاديمية، وإنما خلال مدى زمنيّ حضاري لا يقلّ امتداده وتواتر خبراته وتجاربه، عن ثلاثة آلاف عام، هو عمر حضارة أرض الرافدين وبلاد كنعان، الأرض التي حققت بالتناوب والتكامل وتنظيم الذهن الإنساني من خلال اللغة

---

(٤١) -كارل غوستاف يونغ، إيني هومبيرت، ترجمة -٢٧، وجيه اسعد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٠، ص

وتصاريدها وكتابتها الرمزية. وقد غدت هذه الكتابة عالمية الوجه بوساطة أجدية الفينيقيين العملية الصالحة لكل الناس ومختلف اللغات دون تحيز أو تمييز<sup>(٤٢)</sup>.

د - اللغة العربية عراقية البنية النفسية والذهنية العربية منذ القديم:

هذا التقصي لأنماط اللغة العربية الأولية، نجد أصداءه في الكثير من الدراسات اللغوية العربية المعاصرة، ولعل ما قام به الدكتور عبد الكريم خليفة، في موضوع نشأة اللغة العربية ونحوها، يصلح لأن يكون دليلاً في هذه الفقرة التي نتحدث فيها عن أهمية العربية وقدمها وتشكلها وقوتها التي بقيت عبر الزمن إلى يومنا هذا، لغة قادرة على حمل المجتمع إلى آفاق أفضل، لغة لا تموت، بل تتجدد وتمنح الحياة أملاً ببناء جديد. ففي مناقشة الدكتور خليفة قضية ظهور النحو العربي، مستنداً إلى آراء ابن فارس، ولاسيما في القسم الأخير من استشهاده: "وقد زعم ناس أن علوماً كانت في القرون الأوائل والزمن المتقادم، وأنها درست وجددت منذ زمان قريب، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة إلى لغة"<sup>(٤٣)</sup>، نرى أنه لا يجد في رواية تسمية النحو من قبل الإمام علي بن أبي طالب (ر) تناقضاً مع ما ذهب إليه ابن فارس بقديم هذا العلم، مضيفاً: "وربما كانت جذور هذه المعرفة تذهب بعيداً في أعماق التاريخ وتسائر نشوء العربية وكتابتها"<sup>(٤٤)</sup>.

وهذا يؤكد أن اللغة العربية متواجدة في البنية النفسية والذهنية العربية منذ القديم، كما يؤكد انتقالها من عصر إلى آخر محتفظة بقوتها وقدرتها على التجدد والعطاء، تماماً كما هي الأحلام التي تحتفظ في اللاوعي الجمعي.. أحلام هي نفسها تتكرر، يراها الناس في كل زمن، وربما يرونها بأشكالها العتيقة، على الرغم من تعيير الزمن وتبدل الهيئات والسمات. من أجل هذا لا نزال نعود إلى كتاب "تفسير الأحلام الكبير" لابن سيرين، نجد فيه تفسيراً لأحلامنا العصرية التي تطابق ما جاء في الكتاب الموضوع منذ مئات السنين عن أحلام مغرقة في القدم، ولا تزال هي نفسها اليوم. وهذا ما أكدته ابن سيرين نفسه في قوله: "إن الرؤيا

(٤٢) - د يوسف الحوراني تاريخ العرب ولغتهم العدنانيون ص ٢٨

(٤٣) - د خليفة تيسير العربية بين التقديم والتأخير منشورات مجمع اللغة العربية الأردن، عمان ١٩٨٦ ص ١٤.

(٤٤) - د خليفة تيسير العربية ص ١٤-١٥-

تأتي على ما مضى وخلا وفرط وانقضى"، وقوله: "وأعلم أنه لم يتغير من أصول الرؤيا القديمة شيء ولكن تغيرت حالات الناس في همهم وأدبهم...<sup>(٤٥)</sup>.

وهذا ما يقرب نظرية يونغ في الأنماط الأولية واللاوعي الجمعي من ابن سيرين، لكن الاثنين يختلفان في أنّ الأول يبني نظريته على الاكتساب المعرفي، بينما الثاني يعيد الأحلام إلى الإرادة الإلهية التي تحفظ للناس أعمالهم وتراكمها في شمولية وكلية..

وما ينطبق على الأحلام ينطبق على اللغة، "فإن لها آثاراً عميقة في السلوك الإنساني بمختلف أشكاله وأنواعه<sup>(٤٦)</sup>، وأن لها تاريخاً زاخراً هو من نسيج الفكر والوجدان.. وإذا كان أشرف العرب من سكان المدن كانوا يرسلون أبناءهم إلى الأعراب بالبادية ليحذقوا اللغة العربية وهم صغار ويشبوا عارفين بأساليبها وفصاحتها" كما يقول أ. ولفنسون<sup>(٤٧)</sup>، فكم بالأحرى لأبناء العربية أن يعودوا إلى أمهم لتعيد إليهم بنية نفوسهم وتقودهم إلى بناء مجتمع علمي سليم يحمل في رحمه معالم التطور.

ذ- ثنائية اللغة - المجتمع

إذاً نحن أمام ثنائية استكمالية يعين كل طرف فيها الآخر، وعنوان هذا البحث يستنفر القول حول جملة من العوامل التي تفرض نفسها في سياقه. وهي واسعة ومتشعبة، كما هي متقاطعة إلى حدّ التطابق. والسؤال الأكثر أهمية فيها هو: هل يمكن البحث في مجالي اللغة والمجتمع في مكانين مختلفين؟

إنّ الإجابة السريعة عن هذا السؤال تلجأ إلى القول: إنهما ينطلقان من مكان واحد، فلا مجتمع من دون لغة صنعها على مرّ تاريخه، ولا لغة من دون مجتمع، أي من دون أفراد يصنعونها تبعاً لحاجاتهم، ويتداولونها ويؤصّلونها لتصبح جزءاً من تكوّنهم. وهو ما ارتكز عليه ابن جنّي في تعريفه اللغة بقوله: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم<sup>(٤٨)</sup>.."

<sup>(٤٥)</sup>-تفسير الاحلام الكبير ان سيرين دار الرسول الاكرم والمحجة البيضاء بيروت ٢٠٠٧، ص ١١.

<sup>(٤٦)</sup>-اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث أ د ٣٢ عبد الكريم خليفة ن منشورات مجمع اللغة العربية عمان

١٩٧٨ ص ١١

<sup>(٤٧)</sup>-تاريخ اللغات السامية تأليف أليسون دار القلم بيروت دتط ص ١٤٦.

<sup>(٤٨)</sup>-الخصائص ابن جنّي، تحقيق محمد علي النجار ج ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦ ص ٣٤.

ذ- وما القوم؟ وما اللغة؟

لن أدخل في تعريف هاتين اللفظتين. إلا أنّ الخصوصية التي تميّزت بها العربية تدفعنا إلى القول بالتقارب الشديد بين شخصية العربيّة وأبنائها، لأنّه إذا كانت "اللغة المشتركة مسؤولة إلى حدّ ما عن الوحدة العرقية، وأنّ الوحدة العرقية تكفي دائماً لتفسير اللغة المشتركة" كما يقرّر دي سوسير<sup>(٤٩)</sup> Du Saussure فإنّ بعض الباحثين يرى أنّ: "الألفاظ العربية كالعرب أنفسهم، تتجمّع في قبائل وأسر معروفة الأنساب، وتحمل هذه الألفاظ دوماً دليل معناها وأصلها وميسم نسبتها"<sup>(٥٠)</sup>.

وهذا من شأنه أن يجعل قوّة الوجود والقدرة على التعبير عن التواصل والاتصال والإبداع والخلق وإيجاد التفاهم ورسالة البناء... هي نفسها قوّة المجتمع وقدرته على التواصل والتطور والبقاء والوجود الفاعل.

في ضوء هذه المنطلقات من الصعب أن تكون ثنائية: اللغة - الأمة، ضدّية. وجود كلّ منهما مرتبط بالآخر.. وإذا كانت الأمم تصنع لغاتها، فإنّ على هذه اللغات أن تحفظ صانعيها، أن تكون حاضرة في مجمل حياتهم، تقدّم لهم من مخزونها ما هم بحاجة إليه في كل زمن: في حالات النهوض وحالات التقهقر..

وبما أنّ الأمم تضع قوانينها القادرة على حمايتها، فإنّها تضع للغة قوانينها التي تحميها من الخطر، هكذا كانت شخصية العربي منذ القديم تؤمن بالتنظيم والتعديد.. لذلك وضعت للغة ما يحفظ شخصيتها وما يبقّيها سالمة من عاديّات الزمن.. فلقد امتازت العربية بالتسوير الذي يكتنفها، وكانت "أهمّ مزيّة للعربية حفظت لها شخصيتها، كما يقول الشيخ الدكتور صبحي الصالح، بين أخواتها الساميات "إنّما هي عزلتها عن الشعوب الأعجمية، واكتفاؤها بمقدرتها الذاتية على التعبير، وعلى التمثّل والتوليد وعلى التخيّر والانتقاء، في موطنها عينه وبيئتها نفسها، وبين شقيقاتها اللهجات الفصحى التي تبادلت معها التأثير والتأثر. بينما كانت الساميات يتفرّقن عن موطن السامية الأم، ويتعدن في الوقت نفسه عن الأصالة والصفاء"<sup>(٥١)</sup>.

(٤٩)- علم اللغة العام ص ٢٤٥.

(٥٠)- فقه اللغة العربية ومناهله ومسائله د محمد أسعد النادري المكتبة العصرية صيد / بيروت ٢٠٠٥، ص ٢٥٨

(٥١)- دراسات في فقه اللغة العربية د صبحي الصالح ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨ ص ٣٧.

## المطلب الرابع : بناء شخصية المجتمع العربي

وإذا كانت الألفاظ العربية كالعرب أنفسهم، فهذا يعيدنا إلى البدايات التكوينية التي تجعل من القول ملازماً حدود الشخصية..

ففي الاعتقاد أنّ اللغة العربيّة في وضعها تتناوب المرئي واللامرئي، تضيف إلى المحسوس أموراً غير منظورة، تعيش في المجازات والصور، وتعطي للشيء الواحد أو الفكرة الواحدة غير معنى.. وهذا ما يستتبعه الاستنتاج بأنّ شخصية العربي تقوم في أحد أبنيتها على النظرية المزدوجة إلى الأشياء.. ولذلك كان سرّها في كون ألفاظها تحمل دلالات عديدة وقادرة على الاشتقاق والتوليد.. من جهة، ومن جهة ثانية تقوم بين هذه الألفاظ معان غير مرئية، وهي روابط فلسفية إن شئت، أو نفسيه داخلية تجعل من الحروف أداة لتغيير المعاني في الألفاظ لاسيّما الجذور منها، ومن الإعراب وسيلة لإجراء التحوّل في الأداء المعنوي للفظه داخل الدائرة النحوية، "فدلالة التركيب تقام على مجموعة القرائن التي تنتظمه ضمن سياق مرن يستوعب التحوّلات ويعيّن ما يترتب عليها من تغيير على مستوى الدلالة الكلية"<sup>(٥٢)</sup>.

ومن شأن هذا أن يجعل لأبنية اللغة ميزتين رئيسيتين: الحضور والغياب، والغياب هنا لا يعني التعارض أو التناقض مع الحضور، إنّما هو استمرار له واستكمال وجوده وتأكيد له. لذلك كانت كثرة المترادفات تؤكد هذا الحضور في أنّها تعين حالة الشيء في وضع معيّن تختلف عن حالته في مترادفة أخرى.. فالسيف اليميني غير المهنّد وغير "ذو الفقار".. وكذلك الحسام غير الفاروق والبتار.. هي حالات يكون فيها السيف حاضراً بشكل معين مختلف عن سواه. وهذا ما يؤكده السبكي بقوله: " ذهب بعض الناس إلى إنكار المترادف وزعم أنّ كلّ ما يظنّ من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات، كما في الإنسان والبشر، فإنّ الأول موضوع له باعتبار النسيان أو باعتبار أنه يؤنس، والثاني باعتبار أنّه بادي

---

(٥٢)- من يتحدّى سبويه أفريد بن فضة مجلة اللغة العربية العدد ١٩ المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر ٢٠٠٨ ص ٢٧.

البشرة<sup>(٥٣)</sup> "ومن أجل هذا كان "الإعراب هو الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم، لتعاقب العوامل في أولها<sup>(٥٤)</sup> ، ولذلك يقال: إنّ العرب سمّوا كذلك لكثرة تحركاتهم وتنقلاتهم، ومنها جاءت العربية والإعراب، فبمجرد أن أحرك وأعرّب الكلمات على مستواها الشكلي أحرك في الوقت نفسه الدلالات على مستواها التركيبي<sup>(٥٥)</sup> .

هذه المداخلات تدفع الباحث باتجاه تبني وجهة النظر القائلة بتميّز اللغة العربية وفرادتها بين لغات العالم، وأنها تحمل سمات منتجها وتكاد تكون شبيهة به. وهذا الشبيه لم يكن ينتج لغة بقدر ما كان ينتج أنماطاً في السلوك، وبناءات تتخذ سمة الاحتفاظ بالحياة المتوثبة دائماً إلى الانبعاث والإسهام في دفع الجديد إلى الحياة، وتطويره كي يكون دائم الحضور، وأن تهالك من حوله، ليصبح مثلاً قادراً على الحركة وإنهاض النفوس ودفعها لتتخذ تلك الأنماط معالم سارية المفعول في أزمان مختلفة، حيث "تظل اللغة الوسيلة الرئيسة للاتصال، ومن ثم للتأثير في الإدراك بنحو تذكر الماضي عند الفرد والجماعة ووعيهما بالحاضر وتوقعهما وتنبؤهما بالمستقبل<sup>(٥٦)</sup>

#### ١- حفظ الشخصية وحضورها

لذلك كان الاعتقاد السائد بأنّ العربية حفظت شخصية الأمة على مرّ الزمن، وهي لن تبخل بأداء هذه المهمة في زمننا الراهن.

تعيدنا مقولة بناء الشخصية العربية إلى عصور خلت، حيث نجد مهمة اللغة كانت حاضرة حضوراً مميّزاً في محطات تاريخية كثيرة، حضوراً يثبت هذا الدور العريق في بناء المجتمع العربي وتطوره:

#### أ - بعض الإسهامات البنائية

إنّ العربية هي التي طبعت شخصية العرب فيما قبل الإسلام بطوابع خاصة، بقيت فيهم، تظهر في التعبير عن أنفسهم والاتصاق ببيئتهم وكتابة إبداعهم وإقامة الحضارات

(٥٣)- فقه اللغة د محمد أسعد النادري ص ٣٠.

(٥٤)- الشرح المفصل للزمخشري ابن يعيش دار الكتب العلمية ، د، و، ط بيروت ١٩٩٢، ص ٢٦.

(٥٥)- من يتحدى سيبويه ص ٢٧-٤١.

(٥٦)- اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث د عبد الكريم خليفة ص ١٣-٤٢-

العديدة.. وهذا ما يفسر أهمية الكلمة لديهم.. فلقد اشتهروا بها، وكان شعرهم الديوان الرئيس الذي برعوا فيه.. ولذلك كان التفوق في الكلام وصناعته وقوله يساوي تفوق الأفراد وريادتهم..

إنّ ما ذكره القرآن الكريم، عن الممالك والشعوب التي أهلكت والتي بقيت، خير دليل على عراقة تاريخهم، لذلك توجّ سبحانه حياتهم بالذي يميّزهم: فكان "القرآن الكريم" الذي في معناه العام يعني البناء في كل شيء، وكانت "إقرأ" خير بداية تأمر بهذا البناء..

إنّ ما كشفه التاريخ عن زمن وجود العرب الأنباط ومجتمعهم وعبريتهم في الفنّ والبناء وال عمران، يقف دليلاً على أنّ هؤلاء الناس كانوا رواد بناء، ولا عجب أن نجد رجلاً عالماً مثل الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ينتسب إلى هؤلاء الأنباط: "إننا نبط من كوثي" (٥٧).

هؤلاء الأنباط الذين أسسوا دولة واسعة مترامية الأطراف حذقوا فنون الهندسة والبناء في أشكاله المختلفة، وابتكروا طرقاً جديدة في تشييد المدن، فكانت مدينة البتراء التي لا تزال بعض آثارها إلى اليوم في الأردن آية في الروعة والجمال والتنظيم المدني (٥٨)، كما برعوا في فنون الخط والكتابة، وقد عرف خطهم بالنبطي، نسبة إليهم، تأثرت به أنواع الخطوط فيما بعد، لاسيّما الخطّ المعروف بالكوفي الذي كتب به القرآن الكريم (٥٩).

وفي التدقيق في تاريخ النبط العام<sup>(٦٠)</sup>، يتضح أنّهم "عرب، بل هم أقرب إلى قريش وإلى القبائل الحجازية التي أدركت الإسلام من العرب الذين يعرفون بـ"العرب الجنديين"، يشاركون قريشاً في أكثر أسماء الأشخاص، كما يشاركونهم في عبادة أكثر الأصنام. وخط النبط قريب جداً من خط كتبة الوحي، وقد قلت: إنّ من العلماء من يرى أنّ قلمنا هذا مأخوذ من قلم النبط ن (٦٠)"

وهو دليل يثبت عروبة الأنباط الذين ينتسبون إلى "بنايوت"، الابن الأكبر لإسماعيل جدّ العرب العدنانيين<sup>(٦١)</sup> وهذه العروبة قدّمت للتاريخ أنموذجاً كاملاً عن حياة العرب التي كان شعارها الكتابة والقلم والبناء المتجدّد على غير صعيد..

(٥٧)-آثار البلاد وأخبار العباد القزويني دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٩ ص ٤٧٩.

(٥٨)- للتفصيل: العودة إلى الكتاب "المدينة العربية بين عولمتين للدكتور سالم المعوش دار النهضة العربية، بيروت ص ٥١.

(٥٩)- جولة في الخط العربي، مصطفى عبد العزيز الطرابلسي دار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا ١٩٨٦، ص ٧.

(٦٠)- المرجع نفسه ص ١٤-٥٤.

(٦١)- المرجع نفسه ص ١٤-٥٠.

وتحت عنوان "لغة الأمل والمعتقد"<sup>(٦٢)</sup>، يورد الدكتور يوسف الحوراني الكثير من الحقائق التي تثبت قدرة اللغة العربية على بناء المجتمعات وتطويرها وتجديدها. وإذ أتعب هذه المسألة فلتقديم نماذج أخرى عن قوة العربية وقدرتها الكامنة على الخلق والإبداع والنهوض بالمجتمع.. فقد قامت معتقدات أسلاف العرب من الساميين على فكرة حتمية التجدد السنوي في أقدار الناس، وفاق قناعة بأن الله المدبر العادل يجدد كل سنة قدر الإنسان في يوم معين من السنة، وخلال لوح مكتوب يرسم للإنسان فيه قدره الجديد للسنة المقبلة، دون تمييز بين إنسان وآخر أو فقير وغني.. والمقصود بذلك حماية قدر الإنسان من اليأس المطلق وجعله يعيش في أمل جديد.

"كان هذا النهج ذاته يسري على المتسلطين وما لهم من سلطات، فكان هناك تقليد اجتماعي يقضي بأن يتقدم كل من يرث السلطة بقوانين جديدة للعدالة، تكون له كيان لما يمارسه من أعمال للمجتمع ولحقوق أبنائه، ولهذا غدا التنافس في تحقيق العدالة للجميع العامل الأهم في تنمية شخصية الفرد وتوازن حرته مع حرية الآخرين، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، فهم ذوات، كما تدل عليهم استعمالات اللغة وتصاريفها المتشعبة، ذوات ولا تمييز بين إنسان وآخر، ما داما يتشاركان في حوار الفهم والإفهام وفاق بنيتهما اللغوية".

ولقد ارتبط الناس فيما بينهم باللغة التي حدّدت القواعد والأصول والقوانين في الحكم والشؤون العامة في أرض كنعان والرافدين. "لقد تساوى الناس في الأبجدية مع تساويهم في القدرة على النطق والكلام، ولم تبق صور الأشياء وسيط تواصل بين الناس.. أصبحت اللغة في نمودائم بالمفردات والقواعد الصالحة للتعميم واستعمال الشعوب الأخرى غير السامية لها.."<sup>(٦٣)</sup>.

إنّ المنقّب في تاريخ السلالات العربية المتعاقبة يجد الكثير من المعارف التي وضعت في الأساس لبناء المجتمعات. فثمة قرون طويلة قبل الإسلام، وثمة تطوّر وتكيف مع كل مرحلة، وثمة تنوع يظهر حيوية اللغة العربية ويكشف عن إمكاناتها المخترنة التي تحطت بلاد العرب إلى بلاد الآخرين.

(٦٢)- قصول مجهولة في تاريخ العرب ولغتهم ديوسف الحوراني ص ٥٠-٥٦

(٦٣)- المرجع نفسه، ص ٥٢-٥٧

## ب - مكانة و قدسيّة اللغة العربيّة

هي لغة القرآن.. اللغة المقدّسة التي دخلت في شغاف القلوب والوجدان والعقول والضمائر والنفوس، فشكّلت بناها الرئيسة ورسمت كلّ خطوة يخطوها الإنسان.. نقول الإنسان لأنّ الإسلام ليس للعرب وحدهم، بل للإنسانيّة قاطبة: "علم الإنسان ما لم يعلم" و"خلق الإنسان، علّمه البيان" و"علّم آدم الأسماء كلّها".

ولا ريب في أنّ الإسلام جاء تنويجاً لما سبقه، هو العلم الذي قدّمه سبحانه وتعالى للعالمين، "ولله في خلقه شؤون"، هو الذي خلق السموات والأرض وما عليها.. وقدّر لها هذه المسيرة الطويلة فيما قبله واختصرها في هذا الكتاب العظيم: القرآن.. خلقها وقدّر تدرّجها وتجاربها وصراعها مع نفسها ومع الحياة: "وقل اعملوا".. وقال للموجودات كلّها: "كنّ فيكون" فكانت التراكمات والإيجاءات والأفكار والصنائع والنجاة والهلاك.. وكانت اللغة العربيّة اللسان المبين الذي رسم الأقدار ووجّه الخلق، وخاطب العرب وخصّم باختياره من دون العالمين: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن الفحشاء المنكر" و"إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً"..

إنّها دلائل عميقة على سرّ قوّة العربيّة، لأنّها لم تعد حروفاً وكلمات فحسب، بل أصبحت بشراً يسلكون ويتحرّكون بقدر من الله.. أصبحت شخصيّة ذاتيّة في بنية الإنسان الذهنيّة والنفسيّة والماديّة.. ولا يحق للفرد العبث بهذه الشخصيّة، لأنّه يعبث بالدين واللغة وبتاريخ طويل من إنجازات البشرية كلّها.. وأصبح التزامها أمراً مقدساً.. يتعبّد بها الإنسان أثناء تلاوته القرآن.. وينبغي أن يتعلمها ويتقن قواعدها ويعمل بأصولها.. ولا تمييز في ذلك بين إنسان وآخر.. الكلّ سواسية كأسنان المشط "ولا فرق لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى".

بمجيء الإسلام حُسمت نقاشات طويلة تداولتها الإنسانيّة في دربها الطويل.. وكانت الإشارة الرئيسة تتركز في لفظة "اقرأ" التي تعني اللغة في صميمها، كما تعني البناء بأوسع دلالاته..: "اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم". هذا القلم لا يخط على البياض كلاماً هذراً.. إنّما هو المحراث الذي يشقّ الأرض وينبت حياة لذلك ميّزه الله: "نون، والقلم وما يسطرون"، ميّزه لأنّه ليس مجرد قطعة خشب إنّما لأنّه لسان.. لغة تخطط وتنفذ..

ولذلك غدت اللغة في الإسلام الذي غدّاها بدفق كبير من المعارف والألفاظ الوسيلة البنائيّة التي يتسلّح بها الإنسان، لا ليحفظ أمثولاتها ويغيّبها بجعلها غائبة، بل للعمل

والتنفيذ.. أنفطن بعد ذلك لماذا هي لغة مقدّسة؟ أنعلم لم هي حيّة على الرغم من عاديّات الزمن؟ أندرك لماذا يتمسك بها الناس في مختلف عهودهم؟ أظننا نعلم.. ونعلم أيضاً أنّها قادرة على تجديد حياتنا وإعادة بنائها.. ونعلم أيضاً أنّ الإسلام بهذه اللغة التي تتضمّن تعاليمه استطاعت أن تبني مجتمعاً كبيراً، وتحدث النقلة الكبرى من عالم ما قبل الإسلام إلى عالم ما بعده.. والذي ما بعده هو اعتقاد راسخ بأنّ "هذه اللغة تمتاز عن كافة اللغات بارتباطها بالأصلين العظيمين الخالدين (القرآن والحديث)، وهما على وجه واحد، أوّل الدهر وآخر الدهر، وإليهما مناط العقائد في العالم الإسلامي كلّهُ، فقد جعلنا هذه اللغة، ولا سبيل للغة غيرها من حيث هي، كما أنّه لا سبيل لدين على دينها من حيث هو. وهذا مما يهوّن الخطب فيها، إن ضعفت أو تعدت عليها بعض عوادي الاجتماع، فإنّ قوّة الحياة المستكنّة في أصولها لا تلبث أن تشدّ منها تذهب بأمراضها عند أيسر العلاج. وما دام كل انقلاب اجتماعي فينا لا يأتي على هذا الأصل فهو لن يأتي على تلك اللغة. وإذا كان الحي لا يبني إلا من داخله فهو لا يهدم إلا من داخله"<sup>(٦٤)</sup>.

وهذا دليل كبير على تأثير اللغة في المجتمع، ومثال واضح على التغيير العميق الذي نلمسه، ليس في حياة المسلمين الأوائل، بل في حياتنا نحن على غير سعيد.

#### المطلب الخامس : بناء القاعدة المعرفية العربية

والعربية هي التي استقطبت شعوباً كثيرة تمثّل استقطابها في ذلك الامتزاج الكبير للثقافات في أوج ازدهار للحضارة العربية والإسلامية في الأعصر العباسية. إنّ الدخول في تفصيل هذه الملاحظة قد يخرج عن النطاق المرسوم للبحث، لكن لا بدّ من الإشارة إلى تمكّن العربية من أن تكون اللغة الأساس في ذلك الزمن، بها كتب الكاتبون وإليها لجأ العلماء وإليها ترجم المترجمون، حتى استطاعت أن تثبت قدرتها على المطاوعة والإيفاء بالأغراض المطلوبة والتعبير عن لحظة تاريخية مهمة في حياة الإنسانية.. ذلك كلّهُ يفضي إلى القول: إنّ اللغة العربية هي لغة العلم والفلسفة والأدب والتاريخ والجغرافيا.. وبالتالي هي لغة البناء وهي التي تحمل في رحمتها القدرة على التطوير. وهو الأمر الذي يثبت "أن العرب في مجال البحث العلمي والتعبير العلمي، وفي مقدّمته ما يتعلّق بالطب، أصلاء لا دخلاء، وتاريخهم مع الطب والعلوم ضارب في القدم والعرافة"<sup>(٦٥)</sup>.

(٦٤)- اللغة العربية مصطفى صادق الرافعي القسم الأول آراء ومناقشات منشورات دار الثقافة دمشق ٢٠٠٤ ص ١٧٠.

(٦٥)- مستقبل اللغة العربية محاربة الأعداء وإرادة السماء د أحمد النعمان دار الأمة الجزائر ٢٠٠٨، ص ١٣١.

نجحت العربية في امتحانها العلمي والاجتماعي والسياسي، وتكوّمت فيها المصطلحات، وانبرت للعلوم والفلسفات والتعبير المزهر حتى غدت لغة أقوام آخرين لم يحتفوا بها من قبل، ووصلت آثارها إلى بواطن الحضارات الإنسانية في الشرق والغرب.

ا- ماذا تريد هذه المداخلات أن تقول؟

تساوي الكتابة والحياة

الاستنتاج البديهي الذي يمكن استنتاجه من حركة النهضة العربية أنها نجحت في إطلاق القول عن إسهاره الذي ابتلي به إبان قرون الصمت التي وصفها الباحثون بالانحطاط أو التأخر أو التخلف أو كما يصفها أرسلان بالجمود<sup>(٦٦)</sup>.

إطلاق القول هذا حمل المجتمع إلى وضع جديد سمي بالنهضة، إنَّ الجلبة التي أحدثت والحركة التي رافقتها، حاولت أن تنقل المجتمع إلى آفاق أخرى أفضل من سابقتها، ولم تعد العربية رجالاً كثيراً أسهموا في ميادين الفكر والحضارة والتقدم. وهناك سلسلة طويلة من هؤلاء الذين يبدو أن الإمام الشيخ محمد عبده قد عبّر عن تطلعاتهم بأمرين رئيسيين: ترقية اللغة وإصلاح حال الأمة كما أسلفنا.

مضى النثر محاولاً ملء فراغات الصمت الفكري والإنشائي على غير سعيد، حاملاً مهمة مزدوجة: اللغة والمجتمع، منغلقاً على نفسه حيناً ومنفتحاً على الآخر حيناً آخر.. وحسب أن الحياة من غير قول وكتابة ماضية في صمتها وركودها.

المبحث الثاني: التطور اللغوي:

المطلب الأول تعريف التطور اللغوي:

ا- تعريف التطور: « هو ما عكس الجمود والسكون بل هو التحول إلى الافضل »<sup>(٦٧)</sup>.

ب- التطور اللغوي : التطور اللغوي هو تحوّل اللغة في جميع مستوياتها لتعطي الصورة الجديدة وقد عبر عن ذلك أحد الباحثين بأنه « التغيير الذي يطرأ على اللغة سواء في أصوتها أو دلالة مفرداتها ، أو في الزيادة التي تكتسبها اللغة أو النقصان

(٦٦) - كتاب لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ص ٨٧-٨٩.

(٦٧) - أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني ت(١٤٢٠هـ)، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، أشرف على طبعه: زهير الشاويبش، المكتب الإسلامي [د.ت.ج.١]، ص ٢٠٧.

الذي يصيبها»<sup>(٦٨)</sup> واللفظ هو الوحدة الأساسية من أي لغة ما يصيب الجزء يصيب الكل .

ويرى آخر أن التطور متأصل في حياة اللغة البشرية يرتقي مستعملها برقيها مصرحا بذلك أن « التطور أصل أصيل في حياة اللغة بما هي كائن اجتماعي، وأساس التطور هو الوجود البسيط أولاً ، ثم النماء المترقي ثانياً وخلال هذا الانتقال يتكون الكائن مترقياً ويتغير تغيرات مندرجة»<sup>(٦٩)</sup> تشير هذه التعريفات للتطور اللغوي على أنه يفيد النمو والتغيير والتحول إلى الأفضل والأرقى أي انتقال اللغة من طور إلى طور أحسن وأفضل، وفي معنى آخر كان مضاداً، وهو رأي التقليديين من المشتغلين باللغة ينظرون إلى مظاهر التطور على أنها نوع من الخطأ، أو خروجاً عن القواعد الأساسية بمعنى آخر هو أن التطور انحراف في استطاعة الباحثين رده بالتنبيه وتوجيه

مستعمليه. علماء متأخرون فسروا التطور بالتغيير، أو ما لحق اللغة من ظواهر جديدة في فترة زمانية معينة<sup>(٧٠)</sup>.

والتطور اللغوي قسمه الباحثون قسماً: أحدهما: «تطور لا شعوري، يتم في كل لغة وبيئة لا يفتن إليه إلا بعد المقاربة بين عصور اللغة».

ج - «التطور المقصود المتعمد الذي يقوم به المهرة في صناعة الكلام أو تقوم به المجامع اللغوية لأي هدف مناسب، والتطور المقصود أيضاً هو أقل أثاراً في اللغات بوجه عام، ولذلك نراه في الجيل الواحد من الناس، ويشهده المرء خلال حياته القصيرة»<sup>(٧١)</sup>.

### المطلب الثاني: حتمية التطور اللغوي:

التطور اللغوي ظاهرة اجتماعية، فاللغة تعيش في أحضان المجتمع شأن تطورها شأن باقي الظواهر المرتبطة بحياة الإنسان، وإن كان هذا التطور ر ظاهرة غير مرغوب فيها إلا أنها أصبحت حتمية يقربها الباحث عودة خليل أبو عودة: «أنه ليس بمقدور أمة من الأمم أن تقف تطور لغة من اللغات أو جعلها تجمد على وضع خاص، ذلك أن الأمة نفسها لا يمكنها

(٦٨) - عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالية، مكتبة المنار، ط ١، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥، ص ٤٥.

(٦٩) - أمين الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤٦.

(٧٠) - ينظر: حلمي خليل، المولد في العربية ص ١٧-١٨.

(٧١) - علي الجندي، أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والإسلام، ص ٢٨٤-٢٨٥.

أن تتصف بذلك ، حيث تتضافر العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك في تشكيل البنية العامة للأمة» (٧٢).

المطلب الثالث: عوامل التطور اللغوي: الفرع الأول : عوامل التأثير اللغوي: تتأثر اللغة في تطورها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى ست طوائف: أولها: عوامل اجتماعية خاصة تتمثل في حضارة الأمة و نظمها و عاداتها و تقاليدها وعقائدها ، ومظاهر نشاطها العلمي و العقلي و ثقافتها العامة و اتجاهاتها الفكرية... ثانتها :تأثر اللغة بلغات أخرى. ثالثها: عوامل أدبية تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة ، و ما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية ، و ما إليها في سبيل حمايتها و الارتقاء بها رابعها :انتقال اللغة من السلف إلى الخلف. خامستها :عوامل طبيعية تتمثل في الظواهر الجغرافية و الفيزيولوجية و ما إليها... سادستها :عوامل لغوية ترجع إلى طبيعة اللغة نفسها و طبيعة أصواتها و قواعدها ومنتها ذلك أن عناصر اللغة نفسها قد تنطوي على بعض نواح تؤثر في تطورها(٧٣).

المطلب الرابع -أثر العوامل الاجتماعية في خصائص اللغة و تطورها: تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ونظمها و تقاليدها و عقائدها و اتجاهاتها العقلية ودرجة ثقافتها و نظرتها إلى الحياة و شؤونها الاجتماعية العامة... وما إلى ذلك ، فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير ، و لذلك تعد اللغات اصدق سجل لتاريخ الشعوب(٧٤) و انتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة يهذب لغتها ، و يسمو بأساليبها ، و يوسع نطاقها و يزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة و يكسبها مرونة في التعبير و الدلالة ، فقد كان لانتقال العرب من حياة الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، و من النطاق العربي الضيق الذي امتازت به مدينتهم في عصر بن أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني عباس . كان لهذين الانتقالين اثر في نهضة لغتهم و في أساليبها و اتساعها لمختلف فنون الأدب و شتى مسائل العلوم (٧٥) و يتطور مدلول الكلمة في لغة ما تبعاً لتطور الشؤون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر في اللغة العربية(٧٦).

(٧٢) - عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم، ص ٤٦.

(٧٣) - علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار عكاظ للنشر والتوزيع جدة، دط، 1983م ص ١١

(٧٤) - حمد عبد الله عطوات، اللغة الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ، ط 1424-2003م ص 25.

(٧٥) - المرجع نفسه ص. ٢٥.

(٧٦) - المرجع نفسه ص. ٢٦.

فالصلاة مثلا معناها في الأصل الدعاء ثم شاع استعمالها في الإسلام ، في العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء حتى أصبحت لا ينصرف عن إطلاقها إلى غير هذا المعنى ، و الحجم عناه في الأصل قصد الشيء و الاتجاه إليه ثم شاع استعماله في قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقي مقصورا على هذه الشعيرة... و قس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة فكثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع لسبب اجتماعي ما تزيل تقادم العهد خصوص معناه و تكسبه العموم فمن ذلك في اللغة العربية كلمة : الورد فأصل الورد إتيان الماء وحده ، ثم صار إتيان كل شيء وردا لكثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي لسبب اجتماعي ما يؤدي غالبا إلى افتراض معناه الحقيقي و حلول هذا المعنى المجازي محله ، و من أمثلة ذلك في اللغة العربية كلمات: المجد و الدافن و الوغى الغفران و العقيقة...الخ ، فالمجد معناه في الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازا في الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأصلي ، ولهذا السبب نفسه انتقل معنى "الفن" إلى نقص العقل ، و من اختلاط الأصوات في الحرب إلى الحرب نفسها و معنى "انتقل معنى "الوغى" "الغفران" من الستر إلى الصفح عن الذنوب ، و معنى "العقيقة " من الشعر الذي يخرج عن الولد من بطن أمه إلى ما يذبح عند حلق ذلك الشعر<sup>(٧٧)</sup>.

أولا - تأثر اللغة العربية بحضارة الأمة:

تنطبع اللغة بطابع الاستعمال اليومي في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها، إذ تختلف مظاهر الحياة، وتتباين المناطق على اختلاف الأمم تنتج اللغة في نوع الإنتاج، ونظم الاقتصاد وشؤون الحياة المادية، والمهنية السائدة (الزراعة، والصناعة، والتجارة، والصيد، رعي الأنعام، وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها. فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي)<sup>(٧٨)</sup>

فاللغة وسيلة للتواصل والتعبير عن الحياة والفكر والحضارة فيها، فكان من الطبيعي أن تتأثر العربية بما يترتب على تلك اليقظة العلمية والحضارية والقومية وبتالي تؤثر في عقول المتكلمين . كما يحدث في لغة الصحافة من اتساع ، إذ

(٧٧)- علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار عكاظ للنشر والتوزيع جدة، دط، 1983م-16-17-18-19-20-21

15 بتصرف.

(٧٨) - ينظر: علي عبد الواحد وافي، اللغة و اتمع، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ط ٤، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص ١٣.

تشيع كلمات من باب الإبداعي ، يفرضها الاستعمال على المعجم العربي الحديث، ومنها: تمصير البنوك، وتكويت الوظائف أو سودنتها، وتدويل المشكلة، عربنة الصفقة<sup>(٧٩)</sup>.

ثانيا - تأثر اللغة بلغات أخرى  
تزداد سرعة التطور اللغوي بازدياد انتشار اللغة بين غير أهلها ، و بازدياد عدد الذين يتكلمونها و تنوعهم ، إذ أن انتشارها في أقاليم تحتك بلغات أخرى يعرضها لان تفقد خصائصها الموغلة في الذاتية و التأثير الذي يقع عليها من الخارج يؤدي إلى التغير السريع<sup>(٨٠)</sup>

إن أي احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين أيا كان سبب هذا الاحتكاك و مهما كانت درجته يؤدي لا محالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى ، و انه لمن المتعذر أن تظل لغة مابأمن من الاحتكاك بلغة أخرى ، و لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق<sup>(٨١)</sup>

و لقد أتيح للغة العربية من قبل الإسلام و من بعده فرص كثيرة للاحتكاك بلغات أخرى منفصلتها و من غير فصيلتها ، فقد توثقت العلاقات المادية و الثقافية منذ أقدم العصور بين العرب وجيرانهم الآراميين في الشمال ، فكان لزاما إذن أن تتأثر اللغتان إحداهما الأخرى وفقا لنواميس علم اللغة ، و قد ظهر أن معظم الكلمات العربية الدالة على مظاهر الحياة الحضرية و ما إليها من الأمور التي لم تكن مألوفة في البيئة العربية الدالة على مظاهر الحياة الحضرية و ما إليها من الأمور التي لم تكن مألوفة في البيئة العربية الأولى ، و معظم الكلمات المتعلقة بمنتجات الصناعة و شؤون التفكير الفلسفي و المتصلة بما وراء الطبيعة ... قد انتقلت إلى العربية من الآرامية مثل: شيطان ، سكين ، سارية... و يبدووا هذا التأثير في أوضح صورة في اللهجات العربية البائدة<sup>(٨٢)</sup>.

المطلب الخامس : مجالات التطور اللغوي:

(٧٩) - ينظر: عبد الصبور شاهين، دراسات لغوية، القياس في الفصحى، الدخيل في العامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٤ م ١٩٨٦ م ١٤٠٦ هـ، ص ٤٨.

(٨٠) - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، الناشر مكتبة "الخانجي"، القاهرة، ط 31417-١٩٩٧، ص ١٧

(٨١) - محمد عبد الله عطوات، اللغة الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1424-2003 م ص ٣٢.

(٨٢) - علي عبد الواحد وافي، علم اللغة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط 8، 2002، ص ١٢٣

فقد يكون التطور خاصا بالأصوات أو ببنية الكلمة أو دلالتها، وإن كانت هناك فرق بين عناصرها في سرعة قبول التطور. إذ يمتاز النظام الصوتي بالاستقرار في مرحلة الطفولة، يستمر في حياة الإنسان؛ وقد يحدث فيه تغيير أو تطوير نتيجة التعليم، أو التلقين للغة غير لغته أو نتيجة الاحتكاك بالناطقين غير لغته فتتأثر الأصوات. أما النظام الصري فهو ثابت، يستقر في حياة الفرد ولا يتغير إلا بالانتقال من جيل إلى جيل آخر. بخلاف نظام المفرداتي الذي لا يستقر على صورة، هذا لأنه يتبع ظروف المتكلمين بمداومة على الاستعارة ممن يحيطون بهم، إذ تمتاز مفرداتهم بحركة دائمة بين الزيادة والنقصان والتغيير<sup>(٨٣)</sup>.

وهو ذلك التفاعل الذي يحدث بين بنى لغوية قائمة، وواقع اجتماعي متبدل، يفضي إلى التلاؤم بين تلك البنى التي تعد تقليدية، والحاجات التعبيرية الجديدة، أو هو تغيير يصيب اللغة معجما ونحوا عبر التعاقب التاريخي لمراحل اللغة، وترجع هذه الخاصية إلى المواصفة الناتجة عن أنية الاستعمال، إلى كون اللغة في مفهومها العام مؤسسة اجتماعية تخضع لتأثيرات مختلفة داخلية وخارجية تساهم في تطورها<sup>(٨٤)</sup> واللغة شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها: أصواتها وقواعدها ومنتها ودالتها، وتطورها هذا لا يجري تبعا للأهواء والمصادفات، أو وفق الإرادة الأفراد، وإنما يخضع في سيرة لقوانين جبرية ثابتة، مطردة النتائج، واضحة المعالم، محققة الآثار، لا بد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدي<sup>(٨٥)</sup> إليه فليس في قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل الذي رسمته لها سنن التطور الطبيعي، فمهما أجادوا في وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها و ضبط و مهما

(٨٣)- ينظر: رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلمه وقوانينه - مكتبة الخانجي - القاهرة، ط ٢ - ١٤١٠ هـ -

١٩٩٠ م ص ١٥

(٨٤)- محمد شندول، التطور اللغوي في العربية الحديثة، عالم الكتب الحديث، الاردن، ط ٢٠١٢ ص ١١

(٨٥)- رمضان عبد التواب، لحن العامة، التطور اللغوي دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، 2000 ص 35

أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقا، وفي وضع طرق ثابتة سليمة، يسير عليها المعلمون بهذا الصدد، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال، وتفلت من هذه القيود، وتسير على السبيل الذي تريدها على السير فيه سنن التطور و الارتقاء<sup>(٨٦)</sup> فالتطور اللغوي هو التغير الذي يطرأ على اللغة في مختلف مستوياتها، ومستويات اللغة ليست سواء في قبول التطور وسرعته، فقد يبدو التطور بطيئا في بعض الأحيان في الأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتطور والتغير، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هي التي تختلف من فترة زمنية إلى أخرى ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة، فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين لتكشف لنا الأمر عن اختلافات عميقة كثيرة من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة<sup>(٨٧)</sup> إذن يجب أن يكون معلوما لدينا أن اللغة تتطور، وأن ندرك حتمية هذا التطور، فنظام اللغة نظام مغلق، إلا أنه بحكم كثرة تداولها واستعمالها الدائم قابلة للتطور والتغير، وهذا التطور لا يحدث مخالفا للقواعد والقوانين، بل بما يسمح به ذلك النظام.

## نقد النتائج

لقد وعى هؤلاء النقاد الرواد أهمية دور اللغة في البناء الجديد للمجتمع، فحاولوا أن يقيموا في معادل المعاجم.. ولم تكن هذه الإقامة كافية للتعبير عن العصر، وجدوا أن الحاجة تستدعيهم إلى الخروج من هذه المعادل متبصرين الحقائق في ضوء التطورات العالمية

---

(٨٦)-المرجع السابق ص ٣٥ .

(٨٧)-ستيفن ولمان دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ط 12، 1997م ص.165.

الجديدة.. لقد وجد الطهطاوي صعوبة في التعبير عن هذه الحقائق ما لم يمض في اتجاهين مهمين: الأول تطويع اللغة، أي الخروج من سلطة الكلام المقعر، واللجوء إلى الأساليب الحديثة المبسطة القريبة من تناول الناس، والمعبرة عن شؤون المجتمع بما يكفل الاتصال السليم بأوسع الفئات الشعبية، والثاني: التعريب، ليس فقط المصطلحات بل محاولة تعريب الحياة العصرية وتقديمها كنماذج لم تكن معروفة في دنيا العرب.

وهو الذي اهتم به الدكتور عبد الكريم خليفة في مؤلفاته الكثيرة، وكان يدرك أهمية الطرح النهضوي الأيل إلى جعل اللغة معبرة عن تطلعات الحياة العصرية. فهو يقول: "ونحن في أحاديثنا عن التعريب نقصد معناه الشائع الذي اكتسبه في العصر الحديث، من حيث جعل اللغة العربية لغة الثقافة والعلم والتقنيات الحديثة"<sup>(٨٨)</sup>

وهي مقولة كانت من أولويات السلم التحديثي لدى العرب.. وهو شأن تتعاطى به الأمم، أي أنه "شأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضاً"<sup>(٨٩)</sup>، وقد جعله الإمام محمد عبده قاعدة فتح بها لمن جاء بعده: "إن الحضارة الصحيحة تتوافق مع الإسلام"<sup>(٩٠)</sup>

في ذلك كله ثمة تطوير لإمكانية اللغة، مضافاً إليها مسألة الأحياء ومسألة الهدف المتركة في بناء المجتمع..

ولكن نجد في ذلك نوعاً من القذف بالمعادلات خارج بنية المجتمع.. ذلك أن الترجمة والتعريب يفيدان لهذه البنية، ولكن إذا لم تهضمه وتجعله جزءاً من بنيتها الذهنية والنفسية يبقى خارج اللغة أيضاً، خارج ما عرف عن اللغة العربية من أنها لغة ذات ونفس وذهن.. وأغلب الظن أن هذا التعريب قد جنح بالمهمة الإيجابية خارج الذات.. فلم يوضع في مكانه الصحيح، ولم يستثمر في سبيل الغاية التي ترجم من أجلها لأسباب عديدة:

١- لقد اتسمت المبادرات الأولى للتعريب بطابع الجدية ففعلت فعلها في اللغة

وبعض المصطلحات والعلوم والابتكارات.. لكن ذلك في مراحل لاحقة لم يحظ

---

<sup>(٨٨)</sup> - من تعقيب للدكتور خليفة عبد الكريم إخدَى المداخلات حول الترجمة التي نظمها مركز الوحدة للدراسات العربية

بيروت ١٩٨٢، ص ٨١

<sup>(٨٩)</sup> - لماذا تأخر المسلمون، شكيب أرسلان، ص ١٨-١٠٠.

<sup>(٩٠)</sup> - الفكر العربي في عصر النهضة ألبرت حوراني ترجمة كريم عزقول، دار النهار لنشر، بيروت ١٩٦٨، ص ١٦٩.

بالجدية المطلوبة من الأقطار العربية ولا من المؤسسات التابعة لها كالمجامع والمؤسسات الثقافية والتعليمية الأخرى، وما عرّب في بعض الأحيان لم يكن ملحقاً كما هو الأمر في ترجمة القصص.

٢- ما كاد المجتمع العربي يخرج من تحت سلطة الأتراك حتى دخل في حيز سلطات أجنبية.. وهذه كلها بما فيها التركية لم تسمح له بإقامة دولته المستقلة التي يستطيع استثمار هذه الترجمات فيها، وكأنّ الاستعمار بأشكاله المتعددة سمح بتعلّم لغاته ليسهل الحديث معه، أو ليضمّننا إليه أو لنقله له: نعم بلغته.. وهو ما حصل في المغرب العربي، خصوصاً الجزائر التي حسبتها فرنسا تابعة لها.. وما حصل في ليبيا حين أرادت إيطاليا شاطئاً رابعاً لها تتحدث بلغتها.. وهكذا جرى في الأقطار العربية الباقية التي فرضت عليها إحدى اللغتين الإنكليزية أو الفرنسية..

٣- إنّ غياب الجدية والتخطيط في الدولة القطرية أو في المؤسسات العربية الموحدة (جامعة الدول العربية)، والاستهتار بأمر اللغة، وفرض اللغة الأجنبية في برامج التعليم ومناهجها على المستويات كلها.. جعل الكثيرين يجنحون باتجاه هذه اللغات، فيتقنوها أيما إتقان على حساب لغتهم القومية، فترجموا أنفسهم بالذات بدل ترجمة الكتب والمؤلفات.

٤- انشغال الثورات العربية بمناوئة المستعمر نتيجة مؤامراته المتلاحقة على الأمة العربية، الأمر الذي أدّى إلى عدم الاستقرار في الوطن العربي عبر الأحداث المتسارعة..

٥- عدم التركيز على بنية الشخصية العربية، وانفلات هذه الأخيرة وانصرافها إلى ما لا يعينها عن ما يعينها.

٦- قيام بعض الدعوات الآيلة إلى الإطاحة بها: كالدعوة إلى العامية أو اللغة الثالثة أو كتابة العربية بالحرف اللاتيني.

نحن إذاً أمام جملة من الأسباب التي أدت إلى عدم استثمار التعريب استثماراً صحيحاً.. وهو الأمر الذي جعلنا اليوم، بعد مرور ما يزيد على مئتي سنة على بدء النهضة، نرفع الصوت عالياً لنعود إلى تصحيح المسار اللغوي وإعادة الحياة إلى العربية وإعادة المجتمع إليها.

## خاتمة:

الآن وقد وصلنا إلى خاتمة هذا البحث ، نحمد الله الذي وفقنا على إتمامه ، فلكل بداية نهاية ، ولكل نهاية نتيجة ونتائج هذا البحث نذكرها في النقاط الآتية:

\* اللغة نشاط إنساني مكتسب يتكون من مجموعة من الأصوات الإنسانية ، توضع بنظام معين وباصطلاح بين أعضاء الجماعة اللغوية ، وهي ذات قيمة رمزية باعتبارها وسيلة للاتصال الإنساني.

\* التطور هو الانتقال من حال إلى حال جديدة ، فهو عملية تكشف عن الارتقاء وتؤدي إلى ظهور الجديد ، وليس الجديد إلا ذلك القديم وقد أتى عليه التطور.

\* التطور اللغوي هو ذلك التغير الذي يطرأ على اللغة في مختلف مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية.

\* إن أبرز التحديات التي تواجهها اللغة العربية مشكلة العامية وهذه العامية تدعو إلى هجر الفصحى وبالتالي دعوة إلى هجر لغة القرآن ولولا نزول القرآن لوجدنا العربية الآن قد تحولت في كثير من كلماتها وأبنياتها إلى ما يشبه العاميات.

\* التغير الدلالي مصطلح حديث في علم اللغة الذي تقصد به ذلك التغير الذي يعيب الكلمة إما بفعل تضيق معناه أو توسعه أو انحطاط المعنى أو رقيه ، وهذا التغير يحدث بسبب ما يجد في الحياة الإنسانية من شتى الميادين وتتحكم فيه أسباب وظروف عدة من أسباب نفسية ، اجتماعية ، لغوية ، وتاريخية.

\* التغير الدلالي يصيب الكلمات التي تدخل ضمن الإشارات اللغوية والإشارات الغير اللغوية على حد سواء.

\* كما كان في اللغة تغير في معنى الكلمات ، وأيضاً وجدت تغير في معنى الكلمات في اللهجة.

\* التغير الدلالي فرع من فروع الدراسات الدلالية الوثيقة الصلة بالدراسات المعجمية.

\* قد ينتج من التغير الدلالي إما نشأة ألفاظ جديدة تبعاً لل حاجة إليها سواء عن طريق

الانقراض أو العمل على إحياء ألفاظ قديمة مندثرة أو ينشأ عنه انقراض كلمات كانت مستعملة في اللغة.

\*التغير الدلالي الذي أصاب بعض الكلمات في اللهجة ليس مطلق، فلا يمكن القول أن هذه الكلمات أصابها تغير في معناها بل تطورها، حيث حافظت في كثير من الأحيان على معناها الأصلي الذي وضعت له.

\*كما كان في اللغة تغير في معنى الكلمات، وأيضا وجدت تغير في معنى الكلمات في اللهجة

في الأخير يمكن القول أن كما كان في اللغة عوامل تؤثر فيما تؤدي إلى تغير معاني كلماتها، أيضا هناك عوامل في اللهجة تؤثر في كلماتها وتؤدي إلى تغيير في معناها

#### قائمة المصادر والمراجع:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن جني، الخصائص، ج ٢، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٣.
- ٣- البيان والتبيان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩.
- ٤- علم اللغة الاجتماعي، تأليف د. هدسون، ترجمة د. محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠، ٢١.
- ٥- فصول مجهولة من تاريخ العرب ولغتهم (العدنانيون)، د. يوسف الحوراني، دار الحداثة، بيروت، ٢٠١٠.
- ٦- مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، ف ٣٦/ص ٥٤١.
- ٧- ضحى الإسلام، أحمد أمين، الجزء الأول، ط ١٠، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٨- فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، تحقيق د. فائز محمد، دار الكتاب العربي، ط ٢، بيروت، ١٩٩٦.

- ٩- صدرت الدراسة في سلسلة كتب "عالم المعرفة"، عدد ٢١٨، شباط ١٩٩٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- ١٠- براجشتراسر، التطور النحوي في اللغة العربية، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة، ط ١٤١٤، ٥٢-١٩٩٤م.
- ١١- جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل، ج ١، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٩٨.
- ١٢- يوهان فك، العربية، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠.
- ب- قائمة المراجع:
- ١٣- إبراهيم السمراي، دراسة تاريخي في العربية المحلية، عالم الفكر، القاهرة، ط ١، م. ٢٠٠٠.
- ١٤- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة أ، جلومصرية، مصر، ٢٠٠٤.
- ١٥- إبراهيم وجدي، بحوث ودراسات في علم اللغة، الصرف المعاجم الدلالة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ١٦- إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، أحمد حسن الزيات
- ١٧- المعجم الوسيط، استنبول، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، ١٩٧٢-
- ١٨- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، القاهرة، ١٩٣٥
- ١٩- أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية. الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٦
- ٢٠- الجرجاني، دلائل الإعجاز، الرباط، دار الأمان، ١٩٨٩
- ٢١- أحمد مومن، النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط ٢٠٠٨، ٤م.
- ٢٢- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥.
- ٢٣- أحمد عبد الرحمن حماد، عوامل التطور اللغوي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.

- ٢٤- بيار غيرو، علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عوديات، ط١، بيروت ٢٠٠٤م.
- ٢٥- حامد صادق قنيني، مباحث في علم الدلالة والمصطلح.
- ٢٦- حازم علي كمال الدين، علم الدلالة المقارن، القاهرة، مكتبة الاداب، ٢٠٠٨
- ٢٧- خالد فهمي، المعاجم الأصولية، دراسة لغوية في النشأة والصناعة والمعجمية، إيت ارك للنشر والتوزيع، القاهرة.
- ٢٨- حلمي خليل، الكلمة، دراسة لغوية معجمية، دار المعارف الجامعية، ط١٩٩٨
- ٢٩- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مظاهره، علله وقوانينه، مكتبة الخانجي القاهرة، ط١٤١٧. ١٤١٧-١٩٩٩م.
- ٣٠- حسام البهنساوي، العربية الفصحى ولهجاتها، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د ط م. ٢٠٠٢-١٤٢٤
- ٣١- رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢٠٠٠، ٢
- ٣٢- سلمى بركات، اللغة العربية مستوياتها، أدائها الوظيفي وقضاياها، دار البداية عمان، ط٢٠٠٧م.
- ٣٣- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط١٢، القاهرة.
- ٣٤- عبد العزيز المطر، لحن العامة الدارسات اللغوية الحديثة، ط٢، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧
- ٣٥- عبد الجليل منقور، علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، دار الكتاب الحديث، لبنان، ط١٤٣٨-٢٠١١م. -٣٦- فوزي عيسى، رانيا فوزي عيسى، علم الدلالة النظرية والتطبيق، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط١٤٣٠، ٥١-٢٠٠٨م.
- ٣٧- فريد عوض حيدر، علام الدلالة، دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005

- ٣٨- الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ١٤٢٥هـ-  
٢٠٠٥م.
- ٣٩- محسن علي عطية، اللغة العربية مستوياتها وتطبيقاتها، دار المناهج للنشر،  
عمان، د.ط.، ٢٠٠٩.
- ٤٠- محمد شندول، التطور اللغوي في اللغة العربية الحديثة، عالم الكتب الحديث،  
الأردن، ط ٢٠١٢، ١م.
- 35- محمد عبد الله عطوات، اللغة الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، بيروت، .  
م ٢٠٠٣-١٤٢٤هـ، لبنان ط
- 36- نور الهدى الوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب  
الجامعي الحديث، جامعة الشارقة، ط. ٢٠٠٨
- ٣٧- نور الهدى لوثن، علم الدلالة، دراسة وتطبيق، المكتب الجامعي الحديث، دار  
المعارف، القاهرة، ١٩٨٩.
- ٣٨- راجع: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، د. جواد علي، ج ٣، الفصل  
المعنون: "مملكة الأنباط"، ط ٢، دار العلم للملايين/مكتبة النهضة: بيروت/بغداد،  
١٩٧٨.
-